الحَربُ
العالميّةُ الدَّامِيَةُ

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

الحَربُ العالميّةُ الدَّاميَةُ

رانيا مهدي

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف : عمار جمال العبد

تصميم فني: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / 2019

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلاً أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

الحَربُ العالميّةُ الدَّاميَةُ

رواية

رانيـا مهـدي

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

إهداءٌ

إلـى زوجـي (أحمـد مهـدي)، ملهمـي، وأول المؤمنيـن بقلمـي، والعمـود الفِقَـري الذي تسـتقيم به حياتي. إلى والـدي رحمة الله عليه الذي سـقاني حلاوة اللغة ومعلمي الذي أعطاني مفاتيح كنزها. إلى أختي وصديقتي (چيسـي أبو المجد) التي كانت ملاذًا لي في أحلك الظـروف. وأخيـرًا إلـى أولادي الـذي أتمنـى أن أتـرك لهم إرثًـا أدبيًا يفخـرون به طيلة حياتهم. إلـى كل ضوء يمر في حياتنا فيجعلنا ننير ونلمـع من جديد إلى أولائك الذين ينبتـون في حياتنا ويلهمونا الإزهار والإشراق...

رانيا مهدي

مُقدِّمة

هـل عاصـرت حربًـا يومًا ما؟ إن كانـت إجابتك نعـم، فهذا يعني أنك سـتعيش الأجواء مرةً أخرى من خلال تلك السـطور القادمة، وإن كانت إجابتك بلا فسأخبركَ بأن تتريثَ قبل أن تردَّ بالنّفي، فالحرب لا تَعنـي بالضّرورة مفهومها المتعارف عليه، فأيُّ صراعٍ نفسـيّ وقعتَ بـه يُعَـدُّ حربًا وإن كانـت باردة، وتـكاد لا تقلّ أهميةً عـن المعارك الحربية، ففي الأخيرة غالبًا تكون على علم بعدوك وقدرته وتستطيع أن تَعِد له العدة، أما صراعك القابع في نفسك يكون عدوك الوحيد فيـه هـو أنت؛ روحك، قلبك أو عقلك وربّمـا تموت حتّى دون أن تعرف من هو الخاسر في تلك الحرب.

❖ ❖ ❖

موسكو

عام ١٩٩٠

أنزلت الطائرة القادمة من برلين عجلاتها استعدادًا للهبوط على المدرج المخصّص لها في مطار موسكو.

وفي الكرسيّ الأخير من الطائرة يجلس دكتور «أدلار» شارد الذّهن، ظاهرًا على وجهه علامات عدم الارتياح؛ ففتح الشباك الصغير ليلُقي نظرةً سريعةً على المدينة الذي أتاها مرغمًا، ثُمّ أغلقه بحدّة و ألقى برأسه مغمضًا عينيه محاولًا الاسترخاء لدقائقَ قبل أن تلمس عجلات الطائرة أرضًا لطالما بغضها طوال حياته.

حاول دكتور «أدلار» الاسترخاء على أريكة داخل غرفته بأحد فنادق موسكو بعد عناء رحلة دامت أكثر من عشرين ساعة، بينما كان يعجّ رأسه بالعديد من الأفكار، أخرج من جيبه صورة قديمة لسيدة تأمّلها قليلًا ثُمّ أعادها إلى جيبه بجانب قلبه كما تَعوّد حتّى استسلم لنوم عميق لَم يَفِق منه إلا على صوت هاتف الغرفة ؛ لإيقاظه في الساعة الخامسة صباحًا كما طلب من خدمة الفندق، ارتدى ملابسه و احتسى قهوته الصباحية ثُم توجَّه إلى المكان الذي قدِم إلى (موسكو) من أجله مجبرًا.

إنّها جامعة موسكو ذلك المكان الّذي تواصل معه الدكتور «أدلار» من أجل إتمام رسالته العلمية والحصول على لقب «البرفيسور»، بالطبع كان يمكنه القيام بذلك في جامعة برلين ولكن طبيعة الرسالة الّتي سيقدمها للمناقشة حَتّمت عليه التّواجد في موسكو، كان «أدلار» شخصًا دقيقًا جدًا يهتم بالتفاصيل

عمومًا فكيف و إن كانت رسالته العلمية!؛ فعقد العزم على الاستناد إلى حقائق تاريخية والتى لن تتحقق الا بمقابلة أشخاص عاصروا هذا الواقع وعايشوه حتى يبني صورة مكتملة الأركان عن الحرب العالمية وأسرارها.

وكألمانيّ الجنسية جُبل على كُره السوفيتّ ولكن الأمانة العلمية أَلْزمته بتَقصّي الحقيقة ونقلها كما هي بِناءً على الاستماع للطرف الآخر حتّى وإن كان عدوًا له بالفطرة.

دَلف الدكتور «أدلار» من باب مكتب رئيس الجامعة الدكتور «أليكسندر» حيث استقبله الأخير بابتسامة باردة ولكنه التزم المهنية في التعامل.

«إنه من دواعي سرورنا وشرفٌ لنا تواجد باحث متميزمثلك معنا دكتور أدلار» قالها الدكتور أليكسندر.

حاول أدلار الابتسام ضاغطًا عضلات وجهه بالقوة خوفًا من أن تفضحه ملامحه كشخص يكره أيًا من السوفيتين حتّى النخاع حتى تلك اللكنة الإنجليزية التي يتحدثون بها تثير اشمئزازه.

دار صراعٌ داخلي بين جنبات نفسه، بل هو صراع بين مشاعره الشخصيّة وعقله؛ فنفسه كانت تأبى التواجد في روسيا من الأصل، أما عقله الذي يبحث عن المكانة العلمية وتحقيق طموحه في الحصول على الرسالة العلمية كان يدفعه بقوة نحو استكمال هدفه، وقد أطال دكتور «اليكسندر» الحوار حول فكرة الرسالة وطبيعتها وترتيب الأولويات وتحديد المسارات التي سيسلكها «أدلار» ومن أين ستكون نقطة الانطلاقة. بيد أن «أدلار» كان يبدو شارد الذّهن غير مُعطي وعيًا كاملًا أثناء الحديث.

«وهذا هو عنوان المكان الذي ستبدأ منه بحثك الميداني دكتور أدلار.. دكتور أدلار؟!

انتبه أدلار بعد أن أخرجه صوت دكتور «أليكسندر» من بين معركة عقله وقلبه؛ فتدارك الأمر محدثًا نفسه:

«عليَّ أن ألتزم بالمهنية» ثُم أومأ برأسه: «أشكرك سيّدي بينما الشرف لي أنك ستشرف على رسالتي شخصيًا» وأكملت نفسه حديثها: «أيها السوفيتّي الحقير»

توجه أدلار إلى إدارة الجامعة لاستكمال إجراءاته ثم خرج مستقلًا سيارة أجرة إلى ذلك العنوان الذي أعطاه إياه دكتور ألكسندر.

دار عجزة تابعة للحكومة السوفيتِّيَّة ذلك هو العنوان الذي قصده أدلار والذي سيبدأ منه رحلته، وما إن دخل إلى مكتب الاستقبال وعرَّف نفسه ابتسمت له الموظفة المسؤولة بِوُدّ وأخبرته أنّها على علم بوصوله وأن الدكتورة

«إيلينا ماكسيم» في انتظاره وهي من ستكون بصحبته حَيث إنها المسؤولة عن الصحة النفسية للنزلاء.

صافح أدلار الدكتورة إيلينا والتي لفتت انتباهه بشدة، كانت إيلينا طويلة القامة، ممشوقة القوام ذات شعر أحمر داكن وعينان بلون السماء، شديدة البياض ذات أنفٍ دقيق وشفتين ورديتين ممتلئتين رُغم صغر ثَغرها ولكن ما لفت انتباه أدلار هو دفء يديها رغم البرودة الشديدة للطقس، والابتسامة الصافية التي علت ثَغرها.

أشارت إيلينا إلى أدلار بالجلوس بطريقة مُهذَّبة، وكسرت حاجز الصمت في تلك اللحظات بادئة في سؤاله:

- ماذا تحب أن تشرب دكتور أدلار؟

فأجابها بابتسامة ودودة:

- «لا بأس بالشكولاتة الساخنة».

فضحكت إيلينا بهدوء:

-»أنا أيضًا أحب الشوكولاتة الساخنة، وهذا هو أول شيء مشترك بيننا فأنا أرتاح بالعمل مع أشخاص يكون بيني وبينهم أشياءً مشتركة.»

ثُمّ رفعت سماعة هاتف مكتبها:

- «اثنين من الشوكولاتة الساخنة من فضلك..أشكرك».

لأول مرة يشعر أدلار بالارتياح مُنذ وصوله موسكو، فلم يبذل ذلك المجهود للسيطرة على تعبيرات وجهه لدرجة تعجبت منها نفسه.

«يسعدني أن أكون بصحبتك دكتور أدلار» قالتها إيلينا وهي تضع كوب الشوكولاتة الساخنة على مكتبها ثُمّ استطردت:

- «حدثني دكتور ألكسندر عنك مما دفع فضولي لمعرفة المزيد»

- «أنا دكتور أدلار باحث في التاريخ جئت إلى موسكو من أجل اتمام رسالتي العلمية عن الحرب العالمية؛ فبعد أن قرأت كثيرًا وبحثتُ في الموضوع وجدتُ هناك العديد من الألغازوالأسرارالتي دارت داخل تلك الحرب».

ابتسمت إيلينا ثُمَّ همّت بقول شيئًا ولكنّها ابتلعت جُملتها.

- «أرى في عينيكي الكثير من التساؤلات دكتورة إيلينا ولعل أبرزها هو لماذا يأتي ألماني إلى موسكو والقيام بالبحث الميداني عن الحرب العالمية؟!»

أومأت إيلينا برأسها وهي مصغية تمامًا إلى أدلار، فاستطرد أدلار:

- «دعينا نبدأ رحلتنا أولاً مع نُزلاء الدار ثُمّ سأشرح لكِ كل شيء بالتفصيل أثناء تفقدي للمكان".

وبالفعل توجّه أدلار بصحبة إيلينا لتفقّد النّزلاء من مصابي الحرب؛ لكي يختار منهم الحالات الّتي سَيَبني عليها رسالته العلمية.

وبدأت الدكتورة إيلينا بإعطاء أدلار بيانات أوّلية عن بعض الأشخاص. معظم النزلاء الذين عاصروا الحرب كانوا شبابًا أو أطفالاً أثناء تلك الفترة العصيبة مما يعني أن معاناتهم استمرت لسنينَ طويلة رُغم انتهاء الحرب، ولكن الأمر لَم يشغل بال أدلار ولَم يُثِر شفقته.

وبَعدَ أن مروا على الكثير من الحالات لَفت نظره حالة سيدة تُدعى «ناتاشا سيباستيان»، حيثُ كانت صامتة ولَم تُحرك ساكنًا عند رؤيتهما، نظر الدكتور أدلار إلى إيلينا مندهشًا من ذلك المشهد وعيونه تنضح بالفضول قبل أن ينطق:

- غريبة حالة تلك السيدة أُريد أن أبدأ معها بَحثي.

هزت الدكتورة إيلينا رأسها دليلًا على الرفض قائلة:

- للأسف هي لا تتكلم ولا تعي ما يدور حولها، حالتها ميئوس منها وقد حاولنا كثيرًا بشتّى طرق العلاج ولكن دون جدوى.

- ولكن حالتها جذبتني فكيف لي أن أعرف كافة التفاصيل عنها؟

- سأحاول أخذ تصريح من الدار بأن أُعطيَك الملف الخاص بها والذي يحوي جميع بياناتها والتقارير الطبية المرفقة به منذ وصولها إلى هنا، ويمكنك الجلوس في مكتبي ريثما أذهبُ لإنهاء الإجراءات المتعلقة بذلك الأمر.

شكرها أدلار واتّجها معًا إلى مكتبها ثُمّ غادرت إيلينا مسرعة

إلى الأرشيف.

جلس أدلار لتدوين بعض الملاحظات بعد الزيارة السريعة لبعض الحالات وما زال فكره منشغلًا بحالة السيدة ناتاشا. غابت إيلينا فترة ليست بالقليلة لتعود بعدها إلى مكتبها حاملةً ملف الحالة. التقط أدلار الملف والفضول يقطر من ملامحه شاكرًا الدكتورة إيلينا لينطلق بعدها مسرعًا نحو الفندق.

❖ ❖ ❖

دَاخَاو

جلس أدلار والملف أمامه يتفحصه ببطيء شديد ابتغاء محاولة حل لغز حالة «ناتاشا سيباستيان نفزجر»، ورقة تلو الأخرى معظمها تقارير طبيّة حول الحالة التي صُنّفت اضطرابًا تحوليًا، وضع أدلار الملف بعصبية فوق طاولة، حيث إن التقارير كانت تحوي مصطلحات طبية معقدة تحتاج إلى متخصص لشرحها، أخرج أدلار الصورة القديمة من جيبه وظل يحملق بها في سكون، ثُم عاد والتقط الملف مرة أخرى باحثًا في بيانات الحالة عن مسقط رأسها أو مكان مُعيّن وجدت فيه علّه بذلك يستطيع سبل أغوار لغز ناتاشا؛ ليفاجأ بكلمة (داخاو).

في الصباح الباكر توجه أدلار إلى مكتبة جامعة موسكو وغاص بداخلها لساعات طويلة، غارقًا بين المراجع الطبية والأبحاث العلمية ل «جان مارتن شاركو» و«سيغموند فرويد» و«بيير جانيه» كي يعرف ما الاضطراب التحولي؟ وما أسبابه؟

ساعات وساعات مرّت لَم يَعِي فيها أدلار الوقت الطويل الّذي استغرقته عملية البحث، حتى نبهته معدته الخالية أنه لم يتناول شيئًا طيلة اليوم، وضع نظارته الطبية مطلقًا معها زفرة حارة دليل على التعب والإرهاق، ولكن بحثه أثمَر عن تكوين صورة عامة عن ذلك المرض العجيب والذي يستسلم فيه دماغ المريض للعجز التّام عندما يقع تحت وطأة صدمة لا يستطيع الإنسان تحملها فيلجأ جسد المريض للانفصال عن الواقع ويتحول الأمر إلى أمراض عضوية يعجز الطب عن علاجها في الحالات المزمنة وينتهى المطاف بالمريض بالاستسلام التام للحالة، بل ومقاومة نفسية وجسدية لأي علاج، ومن أعراضه: فقدان النطق والتبلد وانعدام رد الفعل كما في حالة ناتاشا.

«مـا الذي دفع بهـا إلى هذا التحول؟» كان هذا هو السـؤال الذي تردد في عقل أدلار ولَم يجد له إجابةً حتى الآن.

خرج أدلار من المكتبة حاملًا معه عدة مراجع تاريخية ليبدأ رحلة بحث أخرى بعد أن أنهى رحلته السـريعة في البحث الطبي عن طبيعة ذلك المرض.

«دكتـور أدلار» التفـت أدلار إلـى الصـوت ليجـد أمامـه دكتـور أليكسندر المشرف على رسالته العلمية والذي استكمل حديثه:

- أكُنت هنا طوال اليوم؟!

-مرحبًـا دكتـور أليكسـندر، نعم كنـت أُجري بحثًـا من أجل حالة مصابة بالاضطراب التحولي؛ فقد لفتت نظري تلك الحالة بشدة وأردت أن أبحث عن الأسباب التي أدت لتردّي حالتها بذلك الشكل.

صمت الدكتور أليكسندر برهة وهو يحاول أن يجد طريقة لائقة لشرح وجهة نظره في تقليص عملية البحث لتسهيل الأمر على دكتور أدلاردون أن يبدو عنصريًّا، قبل أن ينطق:

- ابحث في المراجع التاريخية لل...للمعتقلات النازية.

شعر أدلار بغضب داخلي، وصراع بين أن يَردّ على ذلك السوفييتّي ويلقّنـه درسًـا في التعريـف بالتاريخ الألماني وبين السـكوت وضبط النفس، ولكنه تراجع متذكرًا أنّه هنا لمهمة محددة وربما التسـرع وأخـذ الأمـور على محمل شـخصي يضر به أكثر مـا يفيده، فاحتاج الأمـر منـه تنفيذ تمرينات الثبـات الانفعالي التي لطالمـا تدرّب عليها قبل قدومه إلى موسكو؛ ليرد بكل هدوء:

- بالتأكيد دكتور أليكسندر لن يفوتني ذلك الأمر.

ثُم نظر الأخير نظره سـريعة إلـى بعض المراجع التي يحملها أدلار ليتدارك الأمر في محاولة لتخفيف حدة الموقف:

- يبدو أنك تسير في المسار الصحيح دكتور أدلار.

لينهي الأخير الحوار بطريقة دبلوماسية:

- أتمنى أن أكون عند حسن ظنّك دائمًا.

-أعتقد أنك ستحصل على الدرجة العلمية مع مرتبة الشرف.

-أتمنى ذلك.

ثُـمّ هَـمّ أدلار بالإنصراف سـريعًا معلّلًا ذلك بـأن لديه الكثير من العمـل لابد أن ينهيه الليلة قبل زيارته مرة أخرى لدار العجزة ومصابي الحرب.

ورُغـم هـدوء ملامحه إلا أن صـدره كان مشـتعلًا بنيران الغضب والـذي حاول اطفاءها باستنشـاق بعض الهواء البارد وتذكير نفسـه دائمًا أنه هنا لهدف سيغير مجرى حياته.

ومرة أخرى ينكبّ أدلار فوق الكتب والمراجع المتراكمة أمامه داخل غرفته وقد نال الإرهاق منه مناله حتى غط في نوم عميق دون أن يشعر، ليستيقظ مفزوعًا إثر كابوس مزعج يلاحقه منذ فترة ليست بالقليلـة ناظـرًا إلـى عقارب تلـك السـاعة العتيقة المعلقـة على جدار غرفته والتي كانت تشـير إلى السادسـة صباحًا، مسـح أدلار وجهه وقد ارتسمت حول عينيه هالات سوداء من شدة التعب.

وبعد احتسـاء قهوته قرّر ألا يذهـب في أي مكان قبل الانتهاء من حل لغز «ناتاشا سيبستيان».

اسـتمر أدلار فـي القـراءة وتدويـن الملاحظات حتى بـدأت تَتضح الصـورة أمامـه، كان اللغـز يكمن في أن ناتاشـا ألمانية الجنسـية فما سـبب وجودها في دار عجزة سـوفيتّيّة؟ كان طرف الخيط يتمثل فـي المنطقـة التي وجـدت فيها ناتاشـا وهي «داخـاو» والتي لم تكن مجـرد مدينة ألمانية فحسـب داخاو كان اسـمًا لمعتقل ضخم شـيد

داخل المدينة الواقعة في جنوب ألمانيا، ويعد معتقل داخاو أول معسكر اعتقال نازي تَمّ بناءه بعد تولّي أدولف هتلر الحكم، وكان ما يُميّز هذا المعتقل أن المساجين والمعتقلين الذين يتمتعون بالصحة اُستخدموا كعبيد للعمل بالسخرة في تشييد المصانع وخاصة مصانع الأسلحة التي كانت تخدم الجيش النازي وقد نُقش على البوابة الحديدية الضخمة للمعتقل عبارة حفظها المعتقلين عن ظهر قلب "العمل هو السبيل للحرية" ولكنها كلمة حق يراد بها باطل.

استمر أدلار في القراءة رغم عدم اقتناعه فيما يقرأ وقد شعر أن الكلمات عبارة عن أسواط تجلد قلبه من الداخل؛ فلَم يتحمل ذلك القدر من الإهانة الموجه لكل ألماني محب لوطنه، وقرر أن يكمل قراءة رُغم العبارات الموجعة التي التهمت صبره على المكوث في موسكو.

صراع نفسي مرير من ناحية يرفض أدلار تصديق أي حرف كُتب في تلك المراجع، ومن ناحية أخرى يريد أن يكمل مشواره الذي بدأه، فقرر أن يكمل محاولًا أن ينحي مشاعره جانبًا واستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يظهر بصيص نور عندما ظهرأمامه اسم أحد المعتقلين ويدعى (سيباستيان نفزجر) إنه نفس اسم والد ناتاشا! هكذا اندهش أدلار عندما وجد الاسم بعد عناء البحث عن أي خيط يدله على حالة ناتاشا، وليته ما فعل فكان ما ذُكر في المراجع شيئًا يدمي القلوب حيث أن سيباستيان كان يعمل في مجال التدريس في ميونخ إلا أنه كان معارضًا ديمقراطيًا لنظام هتلر مما أدى إلى وضعه هو وعائلته تحت الحماية الانتقائية في معتقل داخاو كحال غيرهم من المعارضين وفقًا للأيديولوجية النازية، حتى وُجدت جُثّته بعد ذلك داخل المعسكر والتقرير الأَولي أظهر أنها حالة انتحار، أما التقرير الحقيقي هو أنه تَمّ ضربه وتعذيبه أمام عائلته حتى الموت. وقد أقال

هتلـر المدّعـي العام عندما وجّه تهمة القتل ل «هيلمر فاكرلي» قائد معسكر داخاو،

وأصدر مرسومًا ينص على إن داخاو وجميع معسكرات الإعتقال الأخـرى لـن تخضـع للقانـون الألمانـي لأنّها تنطبـق علـى المواطنين الألمـان، وإنّ مسـؤولي النظـام هـم الوحيـدون الذيـن يديـرون هـذه المعسكرات ويوزعون العقوبة كما يرونها مناسبة.

وبمطابقة التواريخ المرفقة في ملف ناتاشا بالتواريخ المذكورة في المراجع والمكان الذي وجدت فيه وتطابق الاسـم؛ بدا من المنطقيّ أن تصل ابنة سيباستيان إلى تلك الحالة من الاضطراب التحولي.

كل سـطر يقرأه أدلار ينزل عليه كالصاعقة خصوصًا بعد كل تلـك التحليـلات المنطقيـة والّتـي تضاربت مـع ما كتبـه المؤرخون الألمـان، فقـد تم تدريـس التاريخ في ألمانيـا وفقًا لرؤيـة هتلر، فلم يظهر المؤرخون الوجه القبيح لذلك الزعيم الذي لطالما احتشد خلفه الشـعب في سـبيل النهوض بألمانيـا. أغلق أدلار الكتـاب بقوة بينما كان يحدث نفسه:

- هُـراء.. هُـراء.. هُـراء، هؤلاء السـوفيتّ لـن يتوقفوا عن تشـويه تاريخنا ودسّ الحقائق المزيفة لتمثيل دور الضحية، سحقًا لهم!

دفـن أدلار وجهه بين كفيه وهو يفكر جديًا في العودة إلى وطنه تاركًا ذلك المكان الذي يثير اشمئزازه، ولكن صوتًا بداخله كان يحثّه على البقاء والسير قدمًا نحو تحقيق هدفه.

مسـح وجهه بكلتـا يديه وأخرج مـن جَيبه صورة السـيدة الّتي لا تُفارقـه، دار حوار طويـل بينه وبين صاحبة الصـورة اتبعه بذلك النوع من البكاء الذي يغسل القلب ويبعث السكينة على النفس وتستسلم بعدها لنوم كنوم الرضيع في مهده، ثُمّ تسـتيقظ وقد تَعامَل جسدك مـع الارتبأك الكيميائي الذي حـدث بداخلك ليعيد برمجتك، وتعود

تلقائيًـا إلـى كامل وعيك ومقدرتك على اتخـاذ القرارات الصحيحة. وقرر أدلار ألا يتخلّى عن حلمه وأن يبدأ في خط أول سطر في رسالته العلمية، منحيًا انتماءه وحبه لوطنه جانبًا، مصرًا على إظهار الحقيقة بكل شفافية وإن كانت مؤلمة حد الموت.

وبعـد الديباجـة والمقدمـة كتـب أدلار الحالـة رقم (١) "ناتاشـا سيباستيان نفزجر"

وبعـد الانتهاء من حالة ناتاشـا توجـه أدلار في صبـاح اليوم التالي الى دار العجزة للبحث عن الحالة رقم (٢) في قائمة البحث الميداني.

❖ ❖ ❖

أوشفيتز

«صوفيّا إيفانوفيتش» قالتها إيلينا وهي تشير إلى سيدة تبدو في العقد السادس من عمرها ممددة على سريرها داخل دار الرعاية.

استيقظت السيدة المسنة ناظرةً إلى إيلينا ثُمّ ابتسمت ابتسامة باهتة سرعان ما اختفت فور وقوع أعينها على الدكتور أدلار، فتساءلت بصوت منخفض:

- «من هذا دكتورة إيلينا؟»

- «إنه دكتور أدلار عزيزتي».

- «ولماذا جاء إلى حجرتي؟»

ابتسمت إيلينا:

- «إنه باحث في التاريخ، جاء ليعد رسالته العلمية عن الحرب العالمية».

فردت العجوز منزعجة:

- «الحرب!»

ثُمّ حاولت الاعتدال في جلستها ولكن الزمن نال منها مانالـه، فحاولت إيلينا مساعدتها على الجلوس بينما كانت العجوز معترضة على وجود أدلار محدّثةً إيلينا بذلك. شعر أدلار أن السيدة المسنة منزعجة من وجوده وربما سترفض الفكرة من أساسها. بينما كان منتظرًا موافقتها عندما فاتحتها إيلينا في الأمر تبين له أن العجوز تعاني من تشوهات شديدة؛ فقد كان هناك بعض من أعضاءها مفقودًا! فعلل ذلك بأنها ربما أنها أصيبت في الحرب.

كانت إيلينا قد أنهت حديثها مع السيدة المسنة صوفيّا، وقد وافقت بعد أن علمت أنه ألماني الجنسية فقط وذلك لأمرٍ في نفسها.

استعد أدلار لتسجيل الحوار صوتيًا بإحضار جهاز تسجيل لتوثيق شهادة الناجين من الحرب ونقلها كما هي، وأيضًا لتوثيق الحوار بأصواتهم، أوراق للتدوين وطاولة صغيرة وفتح جهاز التسجيل وبدأت السيدة صوفيّا في السرد:

❖ ❖ ❖

بولندا- عام ١٩٤٤

أثناء الحرب العالمية تفاقمت الجرائم النازية إلى حد لا يصدّقه عقل، وازدادت أعداد الأسرى في المعتقلات النازية.

«معتقل (أوشفيتزسوبيبور) ذلك المكان الذي شهد على الكثير من الجرائم اللاإنسانية في حق الأسرى الذين وقعوا في ايدي النازيين" هكذا افتتحت صوفيّا حديثها بعد أن وافقت أن تحكي قصتها للدكتور أدلارعلى اعتبارها شاهدة على الأحداث.

كنتُ صغيرة ولكنني أتذكرتفاصيل ذلك اليوم كأنّه وقع بالأمس، فعندما وصل القطار لمحطة (سوبيبور)ومع أخر صرير لعجلاته فوق القطبان شَعرتُ بذاك الصوت يخترق جسدي فاهتز قلبي معه وكأن شيئًا يسحبني من يدِ أمّي فتشبثتُ بها بشدة، كان جميع من في القطار خائفين من المجهول ولا نعلم ما المصير الذي سنلقاه؟ وجوه متجهمة وأعين حائرة ننظر إلى بعضنا البعض، أطفال في أحضان أباءهم، نساء حوامل يمسكن بطونهن وكأن الأجنة أيضا كانت ترتعد داخل الأرحام، رجال محتضنين عائلاتهم يبدو لك في الظاهر أنهم يحمونهم ولكن في الحقيقة كانوا يحتمون بهم فالأمر كان جلل حتّى على أعتى الرجال، وبمجرد أن وطأت قدماي المكان شعرتُ أن قلبي انقبض بل ازدادت انقباضته حتى كادت تنفجر شرايينه، أحسست أن هناك أمرًا مخيفًا يحدث في هذا المكان.

كانت موسيقى «الڤالس» تتردد بين جنبات المعسكرعبر المكبرات الصوتية، بينما استقبلنا الجنود النازيون في البداية

بكل ود في محاولة خبيثة منهم للسيطرة على جموع الأسرى الغفيرة المصطفّة أمامهم.

- «مرحبًا بكم جميعًا أنا الجينرال ميلر رئيس الوحدة الوقائية ونعتذر لكم عن أي ازعاج أو مضايقة، ولعلكم تتساءلون عن سبب وجودكم هنا! وأنا سأجيبكم»

«كلود» و«ساسي» هما والداي كنا من إحدى العائلات التّي ابتلاها القدر بأن تصل لهذا المكان المخيف، لَم يفلت والدي يدَ أمي ولَم نفارق حضنه أنا وتوأمي جوليا منذ لحظة إجبارنا على استقلال ذلك القطار، فقد كنا نحتمي به من المجهول الذي ينتظرنا.

- لماذا تركنا منزلنا وأتينا إلى هنا؟

هذا هو أول سؤال تبادر إلى ذهني وقد طرحته على والدي علّني استطيع استيعاب ما يحدث حولي، كان ذلك أول شعور بالفقد اختبره في حياتي، فقد الجدران التي كانت تأوينا، فأن تجبر على ترك موطنك هذا ما لا يتحمله بشر.

فجاءني رد والدي يحمل نبرة طمأنينة لَم أتبين صدقها:

- «سنبدأ حياة جديدة يا صغيرتي فلا أريد منك الخوف أبدًا مادُمت حيًا اعلمي أني لن أدع أيَّ مكروه يحدث لكم».

- «لا أريدُ أيَّ أحاديث جانبية أو حتى همس؛ فعندما أقوم بالتحدّث أريد منكم كامل الانتباه لأني لن أعيد تلك التعليمات مرتين وفي حالة مخالفتها ستكون العواقب وخيمة، مفهوم؟»

ألقَى الجينرال ميلر تلك التنبيهات على مسامعنا جميعًا في لهجة حادة وصوت مرتفع يتماشى مع ملامحه النازية الخالية من أيِّ عاطفة، كان الأطفال يغمضون أعينهم في حركة طفولية بريئة لا إرادية بسبب نبرة صوته المخيفة، بينما ارتفعت دقات قلوب العائلات

التي أتَتْ إلى مصيرٍ مجهول.

تنهَّدت السيدة صوفيّا وأشاحت بوجهها محاولةً اخفاء دموعها التي أبت أن تختفي فسالت حارّة على وجنتيها التّي حفر الزمن عليهما أخاديد تبدو لك وكأنها مجرى لفيض دموع لَمْ ينضب حتى الآن.

حاولت إيلينا التخفيف عن السيدة العجوز بأن ربتت بِحُب على ظهرها:

- «هل أحضر لك شيئا ساخنا عزيزتي؟»

هزّت صوفيّا رأسها ببطئ:

- «فقط أريد كوب ماء»

بينما كانت إيلينا تسكب الماء لصوفيّا كان أدلار يحاول تحليل ما تقوله تلك السيدة فتلك المقدمة التي ألقتها على مسامعه كانت صدمة أخرى بالنسبة له.

ولكن شيئًا بداخله يرفض التعاطف معها أو مع تلك الدموع والتي لَم يعتبرها أبدًا مبررًا أو شافعًا لتَغيير تلك الصورة المحفورة داخله، فحثَّ السيدة العجوز على الحديث مرة أخرى بينما فتح جهاز التسجيل خاصته بعد أن أوقفه بسبب لحظة صمت العجوز، لتستطرد الاخيرة حديثها:

«أنتم هنا لإعادة توطينكم، وهناك بعض الإجراءات التي يلزم إتمامها قبل تسكينكم في الأماكن المخصصة لكم، والآن أريد جميع النساء أن تأتي ناحية اليمين ومعهن أطفالهن بينما يصطف الرجال ناحية اليسار» هكذا قال الجينرال ميلر رئيس الوحدة الوقائية في معسكر «أوشفيتز» في لهجة حادة وصارمة أثارت الخوف في داخل تلك العائلات والأفراد الكبير منهم قبل الصغير.

كان لهم كل الحق من ناحية ذلك الشعور فما يطلبه ذلك الجينرال

لا يحمل سوى معنًى واحد هو الفُرقة والفرقة الأبدية بالتحديد ، فبدأت الهمهمات بالارتفاع مصحوبة بأصوات بكاء خافت للبعض، وعيون الأحبة معلقة ببعضها في نظرات كانت الأخيرة لمعظمنا ، فلا أحد يعلم متى ستلتقي أحداقهم مرة أخرى أو كيف؟ مما أثارحفيظة الجينرال النازي والذي صرخ بصوتٍ عالٍ هيا أسرعوا!

تحرّكت النساء وهن يُمسكن بأطفالهن بشدة إلى مبنًى تمت الإشارة إليه من قبل الجينرال النازي، بينما تَمّ اقتياد الرجال إلى مكانٍ أخر جميعهم ذهبوا فيه إلى المجهول.

تَمّ توزيع استمارات لتسجيل بيانات أولية للنساء والأطفال وتَمّ اقتيادهن بعد ذلك إلى مكانٍ أخر.

- «فلتضع كل مِنكن حُليَّها ومقتنياتها في ذلك الصندوق»

تلك الجملة التي أُلقيت على مسامع النساء الأسرى من قبل النازيين، وبدأت أمّي في خلع حُليها وأقراطنا واضعةً إياهم في ذلك الصندوق الذي امتلأ بالمقتنيات الثمينة.

لم تلقي أمي بالاً للتفكير في مصير ذلك الصندوق فجَلّ ما شغل عقلها هو ما هو مصيرأبي، لتنهمل دموعها الحارة في صمت تام لم ينتبه اليه أحد سواي فرفعت رأسي أثر سقوط ذلك الفيض فوق وجهي فلم يكن مني سوى أن احتضنتها بشدة وسحبتُ يد أختي ليمتد ذراعي الصغير ليطوقها هي الأخرى واكتفينا بالصمت الذي لم يخرجنا منه سوى أصوات الأوامر المرتفعة.

- «والآن تحركن هيا! هيا».

هكذا حثّ النازيون النساء على التحرك لنجد أنفسنا داخل غرفة مقيتة وطويلة جدًا كانت على يمينها أماكن للاستحمام وفي المقابل بضع كراسي يقف بجانبها أشخاص في أيديهم مِقصات، لقد كان الأمر واضحًا فسيتم قص شعر النساء وتنظيفهن منعًا

لانتشار الأمراض على حد زعم رئيس الوحدة الوقائية.

جلست النساء تباعًا واحدة تلو الأخرى لقص شعرهن ممتثلات للأوامر ومن بينهم والدتي ثُمّ أُمر بتجريدهن من ملابسهن للقيام بالاستحمام ولكن ما أثار الرعب في قلب النساء والأطفال هو اقتياد البعض منهن خارج ذلك المكان بصحبة أطفالهن.

-إلى أين يأخذونهن يا أمي؟

هكذا القت أختي المرتعدة الأوصال السؤال على أمي بينما كانت متشبثة برداءها المبلل.

ليأتيها جواب أمي بصوت مبحوح بفعل الصدمة:

- «لا أعلم يا جوليا لا أعلم صدقًا.»

- «اصمتي جوليا حتى لا يأخذوننا معهن».

هكذا كان ردي عليها، لَم أكن أعلم لماذا شعرت وقتها أنني مسؤولة عن حمايتنا، ربما رهبة الموقف جعلت سنين عمري تزداد مع كل ثانية لأشعر وقتها أنني عجوزٌ عمرها مائة عام رغم كوني طفلة.

-اهدأن حبيباتي فأنا معكما ولن أتركككما أبدًا.

وبنفس الصوت المبحوح حاولت أمي المسكينة طمأنتنا رغم ارتعاد أوصالها بفعل الخوف والطقس البارد، حتى جاءنا صوت ينادي:

«ساسي إيزاك وابنتيها صوفيّا وجوليا كلود، تقدّمنَ إلى هُنا».

اتسعت حدقتا أمي حتّى ظنَّت أنها لَن ترمش أبدًا، وهبّت منتفضة من مكانها بينما لازالت قطرات الماء تنساب من شعرها على وجهها المتجمد مختلطة بدموعها التي باتت تمسحها سريعًا قبل أن يلحظها أحد.

٣٠/١٢٣ ج هذا هو الكود الخاص بكِ"

هزَّت أُمي رأسها مع جفون مفتوحة ثابتة، وقد شعرت باستسلامها

في هذه اللحظة، وتأكدت وقتها أنه لامفر.

ومما زاد الأمر تعقيدًا وأثناء إعطاء كل فردٍ منّا الكود الخاص به تنامى إلى مسامعنا صوت صرخات مدويّة يشيب لها الولدان، كان صراخًا بشريًا لن تسمعه في أيّ مكان في حياتك سوى داخل المعسكرات النازية، صوت أرواح تتألم بعذاب يفوق القدرة على الاحتمال فتشعر وقتها باهتزاز روحك داخل جسدك رغمًا عنك حتى تظن أنها ستفارقُك.

ماهذا بحق الإله! هكذا صرَخَت النساء داخل غرفة التطهير فلم يجدن إجابة سوى صرخات أعلى وأعلى سقطت على مسامع الجميع كالنيازك الحارقة وارتفعت معها دقات القلوب الفزِعة والتي كانت أشبه بقرع الطبول منها لخفقات قلوب ثُمّ تَبع ذلك رائحة شواء قوية جدًا جدًا.

-احتاج للراحة أرجوك.

قالتها السيدة صوفيّا للدكتور أدلار بعد أن أصبحت تلهثُ أثناء حديثها والذي يبدو أنه أعاد لها ذكريات أدمت قلبها وأعيَت روحها.

-حسنًا سيدتي لا بأس بذلك اليوم وسأتيكِ غدًا لتكملين حديثك، وآسف ان كنت سببت لكِ ازعاجًا.

نهض الأخير بصحبة إيلينا والتي ودّعت بدورها السيدة المسنة طابعةً قبلة على رأسها ؛ فلم تحرك صوفيا ساكنًا وكأن روحها مازالت معلقة بين جنبات معسكر أوشفيتز.

- «تبدو شاردًا دكتور أدلار»

انتبه أدلار لكلمات إيلينا بينما كانا خارجَين إلى حديقة المبنى فنظر إليها وعلى وجهه علامات استفهام كثيرة، فاكتفى

بالسكوت وأخرج من جيبه علبة سجائره فسقطت تلك الصورة القديمة التي يحملها في جيبه، فانحنى ليلتقطها بحركة سريعة ماسحًا إياه بأحد أكمامه وكأنه يعتذر للصورة.

تعجبت إيلينا من موقفه ولكنها عللت ذلك لنفسها بأنها ربما تكون صورة حبيبته أو زوجته.

صافح أدلار إيلينا شاكرًا اياها على مجهودها في مساعدته.

ـ «لا شكر على واجب دكتور أدلار، ربما نعيش في تلك الحياة معتقدين أننا توصلنا لأبعد حدود المعرفة بينما نحن أبعد ما يكون عن ذلك.

وكأن ايلينا التقطت بذكاءها ذلك الصراع الكائن في نفس أدلار مما جعل الأخير ينظر إليها بدهشة قبل أن يسحب يده من يدها ويمضي في طريقه إلى الخروج من بوابة المبنى مشعلًا سيجارته.

تبعته إيلينا بنظرها ثُمّ استدارت لتكمل عملها فقد كان باقيًا على موعد انصرافها ساعتين.

وقف أدلار خلف زجاج شرفة الفندق ينظر إلى المطر الشديد بالخارج وفي يده كوب شوكلاتة ساخنة وكان جهاز التسجيل يعيد حديث صوفيا على مسامعه، ليقاطعه رنين هاتف الغرفة، فأطفأ جهاز التسجيل وقام بالردّ على الهاتف ليأتيه صوت على الجانب الاخر بأنه تمّ توفير المسكن الخاص به خلال فترة إقامته في موسكو. وفي الصباح الباكر انتقل إلى مسكنه الجديد وبدأ في ترتيب مكتبه استعدادًا لاستكمال كتابة رسالته وقد سجّل اسم صوفيّا إيفانوفيتش تحت اسم الحالة رقم(٢)، وقد بدأ في تفريغ محتوى التسجيل الخاص بالحالة.

وفي الموعد الذي حدده مع دكتورة إيلينا داخل مبنى دار الرعاية والتي استقبلته الأخيرة بودٍ وترحاب قائلة:

- «في موعدك بالضبط دكتور أدلار»

ابتسم أدلار:

- تعودت أن أتحرى الدقة في كامل أمور حياتي دكتورة إيلينا.

جلسا معًا لاحتساء الشوكولاتة الساخنة، والتحدث في الكثير من الأمور قبل أن يستعدا للذهاب إلى غرفة صوفيّا لاستكمال سردها لقصتها داخل أوشفيتز.

قرعت إيلينا باب السيدة صوفيّا ليأتيها صوت الأخيرة أَذنا لها بالدخول.

-«عِمت مساءً جميلتي صوفيّا، كيف هي صحتك اليوم؟»

قالتها إيلينا مع ابتسامة ودودة، ألقى أدلار بدوره السلام على صوفيّا والتي لم يختلف حالها عن الأمس، نفس النظرة البائسة والعيون الدامعة وأحاديث خطَّتها الأيام على وجهها، كان الفضول يملأ صدر أدلار عن سبب فقدانها لبعض أعضاءها بتلك الصورة البشعة. صمتت السيدة صوفيّا قليلًا قبل أن تكمل قصتها الحزينة:

«لَم أَرَ والدي منذ أن افترقنا، وظلّت أمي معنا فترة لا أعلم كم هي، ذُقنا فيها طعم الخوف في كل لحظة، كانت رائحة الموت هي المميزة لذلك المكان البغيض، يأتي القطار بصفة دورية يلقي بالأسرى كأكياس القمامة ويَتمُّ تصنيفهم جزء للعمل الشاق وجزء للموت وكلاهما يؤدي إلى الهلاك الأبدي.

كانت الصرخات تتردّد دائمًا بين جنبات هذا المكان الموحش، فلم تكن صيحات الألم التي سمعناها بعد دخولنا المعسكر سوى

لأُناس اختار لهم النازيون الموت كأول خيار، إما لمرضهم أو ضعف صحتهم أو حسب أهواء النازيين الشخصية، فصحتك الجيدة تضمن لك العيش لبضعة أيام مقبلة؛ فهذا يعني أنك قادر على الخدمة بالسخرة أو أنك ستُعينهم على التطور الطبي بأن تكون فأرًا للتجارب مثلًا.»

اعتدل أدلار في جلسته بشكل يوحي أنه منصت بشكل جيد لكلام السيدة صوفيّا التي اجترت ذكريات عصيبة.

-صوفيا.. صوفيا!

- نعم جوليا.

- لقد أخذوا والدة «كارلا» صديقتنا.

- يا إلهي! لماذا؟

- لقد أصابها التيفويد

شهقت وقتها شهقة مكتومة فوضعت أختي يدها على فمها مخافة أن يسمعنا أحد.

- ليس هذا الأمر كله فأنتِ تعلمين جيدًا أن والدتنا تعمل بجوار والدة «كارلا» في الحياكة.

نزل الخبر على كالصاعقة التي ضربت سطح الماء ليسري فيه تيار كهربائي كفيل بحرق مدينة بأكملها وانهمر الدمع من عيني محتضنة أختي، فقد كان يعني هذا أن والدتي معرّضة للإصابة بالعدوى حينها سيكون مصيرها مثل مصير والدة كارلا إمّا المحرقة أو غرفة الغاز.

تلك الغُرف التي يقتادون إليها ضِعاف البنية والمرضى، إنها غرفة طويلة يُجرّ إليها المحكوم عليهم بالموت دون محاكمة، يغلق عليهم الباب ويتم فتح الغاز فيركض الجميع نحو الباب محملين بأملٍ زائفٍ

فـي النجاة فـي محاولة غريزية للبقاء على قيـد الحياة وهم يصارعون الموت مع أطفالهم.

تلـك المحـارق التي إن نطقت فستشـهد على أهـوال العذاب التي واجهتهـا أرواح الأبريـاء داخلها ، مئات من الجثث بـل أحيانًا ألاف يَتمُ التخلـص منهـا يوميًا داخـل المعتقل على مرأى ومسـمع منا جميعًا بل ويـزداد الفجور بأن كانوا يأمرون الأسـرى بالتخلص من جثث ذويهم وزملاءهم بأنفسهم.

حتّـى جـاء دكتـور «جوزيـف مينغيلـي» ، وحسـب ما سـمعنا فهو طبيب عكف على تطوير الطب ودراسـة علم الوراثة ولكن بطريقته الخاصة.

❖ ❖ ❖

دق بـاب غرفـة صوفيّا فكانـت إحـدى الممرضات واقفـة طالبة الدكتورة إيلينا.

خرجت إيلينا تاركةً أدلار مع صوفيا والذي استدار موجهًا حديثه لهـا باللهجـة الروسـية ليحثّها علـى تكملة حديثهـا؛ فتعجبت صوفيّا كيف لألماني أن يتحدث الروسية بتلك الطلاقة؟

فقال لها :

- لا تعجبين سيدتي فقد علمتني أمي إياها منذ الصغر.

- إذن لماذا لَم تتحدث معي بالروسية منذ البداية؟

صمت أدلار وهو ينظر لعين السيدة صوفيّا ، ولم يستطع الرد.

- لقد فهمت، لا داعي للرد.

دخلت إيلينا مرة أخرى إلى حجرة صوفيّا معتذرةً عن خروجها فقد كان هناك ثَمّة من يحتاجها.

- لا تعتذري عزيزتي، فالسيد أدلار يتحدث الروسية بطلاقة، لَم أشعر بالوحدة اطلاقًا.

اندهشت إيلينا ولكنها حاولت أن تخفي دهشتها قائلة بلهجة تحمل بعض المزاح:

- هذا جيد يبدو أن دكتور أدلار كان يختبر إنجليزيتنا.

❖ ❖ ❖

ملاك الموت

«أنا دكتور «جوزيف مينغلي» الطبيب المسؤول عنكم جميعًا»..

تلك هي الكلمات التي ألقاها دكتور مينغيلي على مسامع الجميع في الطابور الصباحي الإجباري الذي لَم يرحموا فيه ضعف صغير ولا كبير، غيرعابئين بالبرد القارص ولا الثلوج التي حوّلت كل شيء للون الأبيض.

- «أنا أريدُ أن يتمتّع الجميع بالصحّة الجيدة لنضمن لكُم مستقبلًا أفضل».

- «والآن أريد منكم أن تذهبوا هناك وتستندوا إلى الحائط الذي خلفكم.»

قالها دكتور مينغلي في برود مثير للأعصاب، ورغم هدوءه إلّا أنه كان خلف نبرته شيئًا مريبًا.

نظرنا جميعًا إلى الخلف لنجد أمامنا حائط مقسَّم لقياس الأطوال، شعرنا بالدهشة المطعَّمة بالخوف كحال أي شعور داخل معسكر أوشفيتز لابد من امتزاج الخوف معه.

وبالفعل أخذ الجنود النازيون بعض من المعتقلين لقياس أطوالهم تباعًا ولكن ماذا كان مصير مَن لَم يصل طوله إلى أيٍ من القياسات الموضوعة والتي قُسمت للنساء والأطفال والرجال؟

كان مصيره المحرقة أو غرفة الغاز على الفور حسب أوامر دكتور مينغلي، والّذي وضع الأطوال وفقًا لنظريته في محاربة مرض التقزُّم الوراثي أمّا الأطفال فقد أمر بجمعهم في مبنى مستقل.

صرخت والدتي فور سماعها ذلك الخبر صرخة مدوّية خرجَت رغمًا عنها:

- اتركوا بناتي أرجوكم أتوسل إليكم، وركضت نحو دكتور مينغلي راكعةً تحت قدميه أرجوكم اتركوا بناتي وتعالت صرخات النساء بالتوسل للنازيين أن يتركوهم مع أبناءهم، ولكن رئيس الوحدة الوقائية احتدّ عليهن جميعًا وأطلق بضع رصاصات في الهواء تجمدت على أثرهن والدتي مكانها تحت قدمي دكتور مينغلي بينما باقي النساء انقطعت اصواتهن من شدة الخوف، فهم قادرون على قتل أطفالهن أمام أعينهن بدون أدنى تردّد.

اندفع الجنود نَحو والدتي لمحاولة دفعها بعيدًا عن دكتور مينغلي ولكن الأخير أشار لهم أن يتركوها، كانت أمي شديدة الجمال ويبدو أنها أعجبت دكتور مينغلي فانحنى الأخيرليرفعها عن الأرض ولكن بمجرد أن لمسها انتفض كأنه ارتطم بصبّارة، فاندفع إلى الخلف صائحًا:

- اقتلوها فورًا إن حرارتها مرتفعة إنها مريضة، وظل يعقم يديه بشكل مبالغ فيه.

هبَّ الجنود المجهزين لهذه المهمة نحوها، وتمّ جرها وهي تصرخ متوسلة:

- بناتي أرجوكم اتركوني أعيش أتركوني وسأكون خادمتكم، ضعوني في أحط الأعمال ولكن اتركوني، اتركوني لأعيش بجوارهما.

لَمْ يرحمها أحد ولَم يعبأ النازيون لصرخات طفلتيها.

لفتَ التوأمتان نظر دكتور مينغلي والذي لمعت عيناه فور رؤيتهما كأنما وجد ضالته فيهما.

ومرة ثانية يتفرق شمل باقي الأسرة، ابتعد صوت أمي المسكينة ولكنّها لَم تتوقف عن الصراخ حتى أختفى صوتها إلى الأبد.

لأول مرة وحيدتان أنا وأختي، أبٌ اختفى منذ لحظة وصولنا فاختفى معه الإحساس بالأمان وتلاشى معه أيّ أمل في الخروج من معسكر الموت ، وأُمّ سمعنا صوت خروج روحها يزلزل كياننا محولًا أرواحنا إلى أشلّاء مشوهة ليتركونا أجساد خاوية ألقوها داخل حجرة تنبعث منها رائحة الموت.

احتضنتُ چوليا بشدة ودخلنا في هيستريا من بكاء الأطفال بشكل يدمي قلب الحجرحتّى خُيل إليَّ أن أنفاسنا قد توقفت من فرط البكاء، كنت أربّت على ظهرها بيدي الصغيرة بينما كان يرتفع بكاءها ، وقتها أدركت أن بما أنني التوأم الأكبر بلحظات من چوليا فقد حتّم علي الأمرأن أكون مسؤولةً عنها مسؤولية كاملة منذ تلك اللحظة والتي شعرت فيها بقوة تحمل شديدة دبت في أوصالي، وثبات غريب في محاولة غريزية منّي للحفاظ على أختي والتي أصبحت هي كل عائلتي ووجدت نفسي احتضنها حضن أُمّ مكفكفة دموعي وبدأت أغني لها نفس التهويدة التي اعتادنا على سماعها منذ لحظة ميلادنا وفي تجهم مني بدأت أردد :

- «عصفورتي الصغيرة يومًا ما ستكبر، لتبحث عن غدٍ أفضل و أعدها أن لا أتركها إلا لنعيم مخلد.. إلا لنعيم مخلد».

اشتد بكاء السيدة صوفيا عند هذه اللحظة وهي تردد إلا لنعيمٍ مخلد..وصمت كلٌّ من أدلار وإيلينا لرهبة الموقف.

لأوّل مرة يتعاطف أدلار مع شخص من جبهة الأعداء على حد وصفه، ولكن الإنسانية تقف هنا موقف السيِّد.

احتضنت إيلينا السيدة صوفيا وطلبت من أدلار أن يتوقف عن التسجيل وليكملوا عملهم لاحقًا ، احترم أدلار ذلك وهبَّ واقفًا وربَّت

على كتف السيدة صوفيا معتذرًا إذا سبب استرجاع الذكريات لها ألمًا. اكتفت صوفيّا بالنظر إليه دون أن تنطق، فتحرك أدلار بصحبة إيلينا إلى خارج الغرفة.

❖ ❖ ❖

- «أتسمح لي أن أدعوك للعشاء الليلة؟ هناك مطعم أعشق أكلاته».

قالتها إيلينا بعد أن خرجا من حجرة السيدة صوفيا.

نظر أدلار اليها قائلًا:

- بكل سرور.

- «حسنًا موعدنا في التاسعة مساءً وهذا هو العنوان لا تتأخر».

- لن أتأخر.

وفي المساء ارتدى أدلار حُلة أنيقة وغرق في سحابة من العطر ثُمَ نظر إلى نفسه في المرآة ليطرق برأسه عندما أدرك كمَّ الشيب الزاحف إلى شعره.

« أه يا أدلار لأي مدًى نسيت نفسك؟ هل تتذكر آخر مرة خرجت فيها في موعد؟ انظر إلى وجهك، لقد كاد شبابك أن يودعك وأنت في منتصف الأربعينيّات، ولم تنعم بلحظة استقرار حتى الآن؛ فمتى سوف ت...» وفجأة رن هاتف منزله ليقطع ذلك الفيض من ملامة النفس مُعلنًا وصول سيارة الأجرة الّتي ستقله إلى المطعم.

كانت الأجواء رائعة وقد تألقت إيلينا في ثوبٍ أسود فازدادت جمالًا مع ذلك التباين بين ثوبها ولون بشرتها البيضاء، فبدت كأن لها جسد من نور، و شعرها الأحمر المنسدل على كتفيها كان أشبه بلحظة غروب الشمس وهي تغطس في زبد البحر الصافي.

تحدثا كثيرًا وضحكا أكثر، كانت ابتسامة أدلار أكثرَ من

رائعة مما جعل إيلينا تُطيل النظر إلى وجه دون أن تشعر، فقد جذبتها ملامحه المقسّمة بدقة في تناغم بين وجهه المستطيل وأنفه الطويل والذي تزين بشارب بني اللون كلون شعره وقد ازدان ببعض الشيب مما أضفي عليه لمسة من الوقارمع عيون بلون المروج الخضراء.

شعر الأخير بالإحراج محاولًا الاعتدال في جلسته وقد احمرت وجنتاه وقال في تلعثم:

- لمـ..لـ..لمَ تحدقين في وجهي هكذا؟

ضحكت إيلينا:

- جذبتني ضحكتك، لماذا دائمًا تُخفيها؟

لاشيء سوى لأني لا أملك وقتًا لرفاهية الضحك، فكل وقتي لعملي وأبحاثي.

فنطقت إيلينا بعفويّة:

- وزوجتك وأسرتك؟!

شعرت إيلينا بالحرج لاندفاعها في التدخل في حياة أدلار الشخصية بهذا الشكل.

-آسفة.. لم أقص...

قاطعها أدلار:

- لا بأس فلستُ متزوجًا وليس لديّ عائلة.

تهللت أسارير إيلينا عندما سمعت ذلك الخبر لتنطق بعفوية وبراءة طفلة:

- «هيا نكمل طعامنا فهذا الطبق من اللحم لا يُأكل إلا ساخنًا".

استمتع كلاهما بتلك السهرة الرائعة وتبادلا أطراف الحديث

طيلـة الوقت، كان هناك الكثير من الأشـياء والميول المشـتركة فيمـا بينهمـا ، فكانـت تلك الأُمسـية كافيـة بإذابة الثلـج بين أدلار وإيلينا.

❖ ❖ ❖

وفـي حجرة السـيدة صوفيا وفي الموعد المتفق عليه مسـبّقًا عاد أدلار لاسـتكمال عمله في تسـجيل شهادة السـيدة العجوزباعتبارها شاهد على الأحداث.

فتح أدلار جهاز التسـجيل و شرعت صوفيّا في استكمال حديثها عن أهوال معتقل أوشفيتز:

- «شرٌ مطلق تجسد في صورة رجل يتلذّذ ويستمتع بإجراء تجاربه العلميـة والمختبرية على أجسـاد السُّـجناء ولَم يسـتثنِ مـن ذلك حتى الأطفال»

صمتت السيدة العجوز لحظات تسترجع فيهن ذكرياتها المحمومة بينما كانت أعين أدلار معلقة بها قبل أن تستطرد:

-كان من المفترض أن يكون طبيبًا يعالج الناس ويخفف آلامهم ولكنـه تحول إلى وحشٍ كاسـر يتلذذ بأنيـن ضحاياه، لا يضجر ولا يمل من الدّم لقد استحقّ وبجدارة لقب ملاك الموت.

الموت إلى اليسار والحياة إلى اليمين، هكذا تحدد مصير الآلاف بإشارة من يد مينغلي والذي كان يُعد من أهم الجينرالات النازيين.

حاولنـا التأقلم أنا وأختي على الوضع الذي فرضته الظروف علينا ويومًـا مـا حدثتنـي جوليا بما يـدور في نفسـها وكنت أريـد محاولة طمأنتها:

- «صوفيا أنا خائفة»

-لا تخافي چوليا فنحن أطفال ماذا عساهم أن يفعلوا بِنَا؟

«الكثير صوفيّا.. الكثير، ألم تستمعي إلى الصرخات المدوّية التي تتردد بين جنبات المكان؟»

-بلى ولكن معظمها كانت أصوات بالغين، اطمئني جوليا.

«اشتقت لأمي وأبي كثيرًا، هل تعتقدين أن والدنا مازال حيًّا صوفيّا؟»

-جوليا أرجوك كُفي عن الحديث وأنهي عملك فهم يريدون أحذيتهم نظيفة، فأيًا منا لا يمكنه تخيل ماذا سيحدث لنا إن خالفنا الأوامر.

كنت أحاول أن أجعل الحديث عن مخاوفها مقتضبًا حتى لا أترك فرصة لخيالها أن يتحرك، فقد اكتفينا من الواقع المؤلم ولَم يعد في القلب مكان للمزيد.

❖ ❖ ❖

منذ أن جاء مينغيلي إلى أوشفيتز وقد تَمّ فصل جميع الأطفال عن ذويهم، لم نكن ندرك وقتها ما الذي يحدث حولنا أو ما هو مصيرنا، لقد فقدنا الإحساس بالزمان والمكان تعوَّدنا على سماع الصرخات، تيتَّم معظم أطفال معتقل «أوشفيتز»، كنا نصطف كل صباح أمام مينغلي لفحصنا حاملًا الحلوى في جيبه، وتلك كانت طريقته التي تشبه الأفاعي في هدوءها؛ حتى صدقوه الأطفال وأصبحوا ينادونه العم مينغلي، قام بإخبارهم أن ذويهم كانوا حاملين وباءً إن لم يقض عليه سينتشر وسنلقى حتفنا جميعًا وأن حمايتنا واجبة؛ فهو لا يَكنُّ أبدًا كرهًا لأحد بل بالعكس هو يحبنا ويعتبرنا أولاده، كان يربِّت على رؤوس الأطفال بمنتهى الرفق والحب

قاطعها أدلار:

- ولماذا أطلقتم عليه اسم ملاك الموت؟

ابتسمت السيدة صوفيا ابتسامة مُـرّة وكأنما عضلات وجهها تعاندها فتختفي ابتسامتها قبل أن تبدأ :

- لعلك تساءلت عن سبب التشوهات التي أعاني منها ، صحيح؟.

«نعم سيدتي ولكني أعتقدت أنها إصابات جـرّاء قصف قد وقع عليكم»

ـهي بالفعل إصابة حرب ولكنها لم تكن جرّاء قصف أو حتى طلقات نارية ؛ إنها كانت تلك الحرب التي شنَّها مينغلي على أطفال المعسكر.

دق باب الغرفة ودخلت إيلينا :

- «هل تأخرت عليكم»

لَمْ يدرِ أدلار لِمَ تهللت أساريره فور رؤيته لإيلينا ، لأول مرة يشعر بشيء من الفرح لرؤية امرأة فلم يكن أدلار أبدًا مهتمًا بأمرٍ كهذا من قبل ، ولكن هذه المرة كان احساسه مختلف..وبشدة.

وفي حديقة دار العجزة جلسَ أدلار والسيدة صوفيّا ومعهما إيلينا ، والتي اقترحت استكمال الحديث خارج الغرفة كنوع من التخفيف النفسي عن صوفيّا ، خاصةً أن الشمس كانت مشرقة في ذلك اليوم.

واستكملت صوفيا حديثها :

- كفئران تجارب احتفظ بِنَا مينغلي في أكواخٍ خاصة ، كنا في البداية ممنوحين بعض الامتيازات دونًا عن باقي سـجناء المعسكر ، كان مسموحٌ لنا باللعب وكنا مستثنين من الذهاب إلى غرف الغاز ؛ فكانوا يطلقون علينا أطفال مينغلي وهذا يعني أن أحدًا لا يملك سلطة علينا سوى هو.

وفي صبيحة أحد الأيام...

- «إنه صوت إنذار الاستيقاظ جوليا».

-اتركيني صوفيا أريد أن أنام.

«استفيقي هيا إنه ميعاد الطابور الصباحي».

فتحت جوليا عيونها قائلة:

- كنت أحلم أننا في منزلنا ورأيت أمي واقفة تُعدُّ الطعام بينما كان أبي يداعبنا، لكم اشتقت إليهما كثيرًا، فذاك الطعام الذي يقدمونه لنا لا يشبعني صوفيّا»

- «كفاكِ أحلام جوليا، هيا بِنَا قبل أن يقوموا بعقابنا».

-إنهم يأخذون كميَّة كبيرة من دمائنا كل صباح صوفيّا، أشعر بالإرهاق الشديد ولا أعلم لماذا يفعلون ذلك؟ ولكن عندما سألتهم أخبروني أنه لمصلحتنا، من يعرف؟ ولكني حزينة صوفيّا من أجلِ الرضع رأيتهم بالأمس يحاولون سحب الدماء من جسد أحدهم؛ ولكن لصغر جسده قاموا بالسحب من رقبته.

-كُفِّي عن الثرثرة فَقد دقَّ الإنذار الثاني.

- إذن هيا بِنَا.

اصطففنا كالعادة في السادسة صباحًا وجاء مينغلي وأخبرنا أن هناك سيارات ستأخذنا إلى مكانٍ أخر، فرحنا كثيرًا فلم نكن نعلم وقتها أننا مُرسلون إلى مختبرات الموت.

أعطت إيلينا كوبًا من النعناع الدافيء للسيدة صوفيّا في محاولة لتهدئتها، بينما شَردَ أدلار في أمرٍ ما.

فنادته إيلينا:

أدلار.. أدلار!

- نعم إيلينا قالها أدلار كأنّما تَمّ انتشاله من بئرٍ سحيقة.

- «سألتك مرتين هل تريد أن تحتسي القهوة لكن يبدو أنك تفكر في أمرٍ مهم».

قالتها إيلينا بنبرة تحمل بين جنباتها بعض من الغيرة.

ولـم تكن إيلينـا تعلم طبيعة الصـراع القابع في قلـب أدلار، فقد قلبـت السـيدة صوفيّا بكلامهـا موازين معتقداتـه كألماني فكان مـا ترويـه مخالفًا تمامًا لما رُسِّـخ فـي عقله وزُرع في قلبـه منذ لحظة ولادته، ورغم أنّه لَمْ يصل لغايته بعد من وجوده في موسـكو، إلا أن هناك أمر ما قد تغيربالتأكيد في شخصية أدلار.

ابتسم أدلار وهو ينظر إلى إيلينا:

-«لا، بل أريد كوبًا من الشوكولاتة الساخنة».

فبادلته إيلينا نفس الابتسـامة مصحوبة بإيماءة هادئة ثُمَّ أشـاحت بعيونها بعيدًا عن عيونه بدلال امرأة تلقَّت رسالة من عيون رجلٍ تنضح بالإعجاب.

وفـي ظل نظـرات الإعجـاب المتبادلة بيـن أدلار وإيلينـا من خلف أكواب الشـوكولاتة السـاخنة فتح أدلار جهاز التسـجيل مرة أخرى لتستكمل السيدة صوفيّا حديثها عن ملاك الموت، وقد تلاشت تلك النظرات خلف سردها لباقي الحقائق وتبدلت بانتباه شديد.

❖ ❖ ❖

- «تـم جمع التوائم في كوخ منفصل من أكواخ مينغلي، ووصلت السيارات الخاصة بمختبراته والّتي ستقل التوائم الى مكان أخر.»

قالتهـا السـيدة صوفيّـا مسـتطردة فـي حديثهـا ولكـن في تلك المرة ومع أول كلمة كانت تسـيل دموع السـيدة العجوز بين تجاعيد ملامحها كمجرى سيل حُفر بفعل التكرار والاستمرارية.

لقـد أخـذوا كارلا تلك الفتاة اليتيمة التي تقرّبـت إلينا أنا وجوليا بحكـم التواجـد في نفس الظـروف، لَم نعلم وقتها إلـى أين؟ أو ماذا سـيكون مصيرهـا؟ حتى عـادت كارلا بعد عدة أيام وقـد تَمّ وضع

ضمادات على أجزاء متفرقة من جسدها بطريقة تُدمي القلب، علامات استفهام كثيرة اندفعت نحو عقلي، فكنت أتسلل إلى الأكواخ المجاورة في محاولةٍ مني لفهم ما يدور حولنا.

وفي يوم كنتُ أحوم حول الكوخ المجاور، وجدتُ كارلا تخرج جثة هامدة؛ فشهَقتُ شهقةً مكتومة شعرت وقتها كأنها مزّقت رئتاي، ركضتُ مسرعة نحو كوخنا وقد كانت أوصالي ترتعد كسنبلة قمح وسط رياح شديدة، دثرتني جوليا واحتضنتني متسائلة:

- ماذا أصابك صوفيا؟ ماذا أصابك يا حبيبتي؟!

لَم أستطع وقتها أن أنبث ببنت شفة، فقد ألجم الخوف لساني، كان مشهد جثة كارلا من أبشع ما يكون فقد كانت متعفنة والقيح ينقط منها، ومن ثَمَّ وضعوها في كيس قمامة وذهبوا بها إلى المحرقة.

أغلق أدلار جهاز التسجيل ولأول مرة تترقرق عيونه بالدمع من هول وصف المشهد.

ما كل هذه القسوة؟ وما كل هذا الجبروت؟ وبينما كانت نفسه لازالت تحدّثه قاطعت السيدة صوفيّا هذا الحوار الخفي قائلة:

- «لأول مرة ألمح تأثُّرك بكلامي» وابتسمت بمرارة:

- «لذلك قد وافقت عندما علمت أنك ألماني الجنسية علّني بذلك أستطيع أن أساعدك في ازاحة النقاب عن أسرار بالتأكيد كانت بالنسبة لك مجرد إشاعات يريد عدوكم النيل منكم عن طريقها لتشويه تاريخكم المُشرّف، ولكني لا أريد منك حُكمًا الآن فقط انتظر ريثما انتهي من حكايتي.

وبفم ملجوم فتح أدلار جهاز التسجيل بينما قد ارتسمت ملامح الحزن عًلى وجهه، ثُم ربَّت على يد السيدة العجوز لحثّها على

استكمال حديثها وكانت إيلينا تنظر بأسى نحو المسكينة صوفيّا.

❖ ❖ ❖

كان مينغلي يحوم حولنا كالذئب كل صباح لاختيار فريسته أو ربما فرائسه مستغلاً براءتنا وجهلنا بما يحدث وعدم ادراك البعض منّا لصغر سنهم حقيقة تناقص أعدادنا بشكلٍ ملحوظ، بعد مشهد جثّة كارلا قررتُ أن أعرف ما الذي يحدث حولي، كان عقلي الصغير يهيئ لي أن ذلك سيجعلني قادرة على آخذ موقفًا دفاعي في حال حدوث أمر ما لي أو لأختي ورغم أن الفرق بين لحظات ميلادنا كانت معدودة إلاأنني كنت أُعدُ نفسي المسؤولة عن جوليا خصوصًا بعد فقدان أبوينا، ولكن هيهات، فقد حول مينغلي مختبراته إلى محل قصّابة، السلطة المطلقة التي أعطيت له أصابت هذا الرجل بالجنون حتى أنه في يوم من الأيام حين أخبروه أن القمل تفشّى بين مجموعة من الأسرى السيدات، احتجزهن جميعًا وما كان منه سوى أن وضعهن داخل المحرقة!

كُنّ قرابة السبعمائة وخمسين امرأة، قام بحرقهن أحياء متجاهلًا صرخاتهن وتراكضهن اليائس نحو الباب.

كان يسحب الدماء من الأطفال غير مكترسًا بصحتهم حتى أن بعضهم برزت عظامه فأصبح كهيكلٍ عظمي ولكنه متحرك وتركهم في مواجهة الموت بدمٍ بارد، وقد استخدم البعض منهم كأسلحة بيولوجية أيضًا.

اتسعت عيون أدلار من هول الصدمة مرددًا:

- أسلحة بيولوجية؟ كيف؟

أجابته صوفيّا:

- كان يحقن مجموعة من الأطفال بفيروس مثل الطاعون ثُمّ

يطلقهم ليعودوا إلى معسكرات أعداءه والنتيجة كانت تفشّي الوباء في المكان وموت الجميع.

والأصعب من ذلك كان حال التوائم. صمتت السيدة العجوزقليلًا قبل أن تنطق:

- لكن اتركني الآن يا دكتور أدلار فأنا احتاج إلى قسطٍ من الراحة.

أشارت إيلينا إلى المساعدين لدفع كرسي صوفيّا المدولب نحو غرفتها وتابعتْها بنظرها حتى اختفت داخل المبنى.

كان أدلار يرتجف بعد أن ملأت السحب السماء فأخفت شعاع الشمس الدافيء وانخفضت درجة الحرارة فوضعت إيلينا يدها فوق يديه لتتحسس حرارته لتجد يديه باردتين جدًا.

انتفض أدلار كمن لدغه عقرب فور ملامسة يدها ليده فتراجعت إيلينا معتذرة:

- كنت فقط أطمئن أن حرارتك طبيعيّة، فأنت ترتجف بشدة.

تلعثم أدلار قبل أن ينهض ململمًا أغراضه قائلًا:

-أعلم.. أقصد لا بأس.. علي الذهاب الآن.

ثُمّ ارتدى معطفه بسرعة وصافح إيلينا وخرج من باب الحديقة مهرولًا.

تابعته إيلينا بعيونها وقد امتلأت بفيضٍ من المشاعر وقلبٍ ينذر بميلاد حبٍ جديد، حتى أختفى عن نظرها لتستدير بعدها عائدة نحو المبنى لاستكمال مهامها.

❖ ❖ ❖

جلس أدلار على مكتبه وهو يراجع تسجيلات السيدة صوفيّا وقد دار عقله كعقارب ساعة فقدت القدرة على التحكم، وقع في حيرة كبيرة بين ما كانت تسرده له والدته وبين سرد السيدة صوفيّا.

وبينما كان منهمكا في استكمال تدوين تلك الحقائق المخيفة التي سردتها السيدة صوفيّا، أتاه صوت رنين الهاتف ليوقفه عن عمله فيرد بصوتٍ منهك ليجد على الجانب الآخر إيلينا:

- اعتذر إن كنت قد أزعجتك أدلار ولكني أردت الاطمئنان عليك وسماع صوتك قبل أن أخلد إلى النوم.

ارتفعت دقّات قلب أدلار فقد أثار صوت إيلينا في قلبه ذلك الشغف الذي يشعر به عند رؤيتها، ولكن هذه المرة أشعره صوتها بالطمأنينة وسط بحور الحيرة التي يسبح فيها وحده:

-بالعكس أنا سعيد لسماع صوتك إيلينا.

وبدون تفكير استطرد:

- هل تقبلين دعوتي على العشاء غدًا.

كاد قلب إيلينا أن يقفز من بين ضلوعها من شدة فرحتها بتلك الدعوة فلَم يكن منها سوى أن أجابت وبدون تفكير:

- نعم.. نعم .

ابتسم أدلار ابتسامة واسعة قبل أن يرد عليها:

- «إذن أراكِ غدًا إيلينا».

وأغلق الهاتف بعد أن تمنَّى لها ليلة سعيدة، وتنهَّد تنهيدة حارة حاملةً الكثير من المشاعر التي غزت قلبه دون استئذان، كان يسمع كثيرًا عن تلك الأحاسيس ولكنه لأول مرة يختبرها بنفسه.

قفزت إيلينا من فوق سريرها وكانت تستمع إلى موسيقى رومانسية هادئة وظلت ترقص مثل حورية بحر فوق صفح الماء، ظلت

ترقص وكأنها بين أحضان أدلار أو هكذا تمنت وهي تردد :

«أحبك أدلار.. أحبك» واستمرت في الرقص الى أن وقعت فوق سريرها مستسلمة للنوم.

وفي الصباح دلف أدلار من باب دار رعاية العجزة في نشاطٍ ووجهٍ مبتسم، كان يلقي السلام على الجميع في ودٍ لم يعهده من قبل كألماني مع الروس ولكنها مرآة الحب التي تعكس كل جميل على روح المُحب.

وصل إلى مكتب إيلينا الذي كان شِبه مغلق ليسمع بالصدفة حديثها مع أحدهم:

- نعم كنت أحبك بروس.

نزلت الكلمة كصاعقة ضربت سفح جبلٍ فهدمته فوق رأس أدلار.

«إيلينا أنا أحبك»

قالها الشخص المتواجد مع إيلينا في الغرفة.

ويبدو أنهما أنهيا حديثهما لأن إيلينا فتحت باب مكتبها وهي تقول حسنًا أراك غدًا يا بروس، وإذ بها تجد أدلار أمامها والذي كان متسمرًا في مكانه وقد امتلأت عيونه بعلامات الدهشة الممزوجة بالحزن، بينما كانت عيون إيلينا تترجاه أن يتمهل في الحكم عليها، وكان بروس يتنقل بعيونه بين الاثنين وغضب الغيرة يقطر منها، ثُمّ نظر إلى أدلار من أسفل إلى أعلى قبل أن ينظر إلى إيلينا قائلًا: أراكِ غدًا يا حلوتي، ثُمّ انصرف هذا الشخص من أمامهما.

لَم ينتظر أدلار من إيلينا أيّة تبريرات، فقط أطال النظر إلى عيونها ثُم انصرف هو الأخر ولكن بقلبٍ حزين وفمٍ ألجمه المشهد.

أنَّب أدلار نفسه على تلك المشاعر التي اجتاحت قلبه، وقرر أن

يكمل مهامَه التي جاء من أجلها متوجهًا مباشرة نحو حجرة السيدة صوفيّا والتّي كانت قد أنهت للتو فطورها وتحتسي مشروبًا ساخنًا في انتظار وصول أدلار لكي تسرد باقي معاناتها في معتقل أوشفيتز. وعندما دخل أدلار شعرَت أن هناك خطبٌ ما، ولكنها استحت أن تسأله واستهلت حديثها معه فور أن أشار لها ببدأ الحديث:

- قادني فضولي إلى مراقبة مختبرات مينغلي ورغم صغر سني إلا إنني كنت أبحثُ عن طريقة للهرب من المعسكر ولكن حتى أعتى الرجال لَم يستطيعوا ذلك، وما شاهدته داخل تلك المختبرات ما زادَني إلا إصرارًا على الهرب. علمت وقتها أن ملاك الموت هذا يجري اختبارات بشأن علم الوراثة ولتحسين نسل (الجنس الآري). كان لابد له من اجراء التجارب الوراثية على بشر يعاملون معاملة فئران التجارب لضمان جودة النتائج طبعًا.

صنّفت النازية المجموعات العرقية ووضعت العرق الآري في قمة الهرم، متبوعًا بالأعراق القريبة منه في النسب مثل البريطانيين وشعوب الفيكينغ القاطنة بأوروبا الشمالية، ووضعت الغجر واليهود والروس في أسفل السلم، وقد آمنت النازية بإمكانية تحسين الجنس البشري بالقضاء على المعوقين وأصحاب التشوهات والأجناس الدنيا في التصنيف العرقي الذي وضعته، لذلك فقد حكم علينا بالإبادة وقبلها بالاستفادة من أعراقنا المتدنية من أجل ضمان حياة أفضل للجنس الآري عن طريق المضي قدمًا في تقطيع أجسادنا أحياء.

شعر أدلار بألم يعتصر قلبه، خاصة وأن الأخير كان يأن حزنًا عندما وجد إيلينا بصحبة رجل أخر، مما أشعره بألمٍ شديد يمزق صدره.

دلفت إيلينا إلى حجرة السيدة صوفيّا؛ فأشاح أدلار بوجهه عنها، جلست إيلينا إلى جوار أدلار ولكنها أبدًا لم تستطع التحدث.

شـعرت السيدة صوفيّا أن هناك خطب ما بينهما لذلك توقفت قبل أن تسأل:

- هل أنتما بخير؟ فجاءت إجابتهما في نفس الوقت:نعم. ابتسـمت السـيدة صوفيّـا ثم نظـرت إليهما قائلـة: هل لي أن أكمـل حديثي؟! فجاوباها أيضًا في آنٍ واحد: بالتأكيد.

فقالت بلهجة تحمل بعض السخرية:

- إذن فليضـع كل منكمـا ما يحمله في قلبه من هموم جانبًا فما سأرويه لكما سيسحق قلبيكما سحقًا.

«أحضروا لي جميع التوائم»

قالها مينغلي لأحد مساعديه في لهجة صارمة.

-حسنًا سيدي.

تجمّع التوائم أمام مينغلي بشـكل مهين وقد برزت عظامهم وطال شـعرهم وقد اصطفـوا أمامه عراة، أيتام، مسـلوبي الإرادة منتظرين إشارة من يد مينغلي لكي يحدد مصائرهم.

- «جوليا وصوفيا كلود تقدمّا»

نزلـت كلمـات الجندي المخوّل مـن قبل مينغلـي لتحديد مع أي مجموعة فئران سـيضعنا عليّ كالصاعقة، كانـت أمنيتي الوحيدة ألّا يأتـي هـذا اليـوم أبـدًا، لَم يتبق لي في هذه الدنيا سـوى شـقيقتي وتوأمي جوليا. سـالت دموعي رُغمًا عني؛ فطول فترة مراقبتي خلسـة لمختبـرات مينغلي جعلتني أعرف مسـبقًا مصيرنـا المحتوم، وجل ما تمنيته وقتها أن يُعجل بموتي؛ فقلبي الصغير أبدًا لن يتحمل أن تصاب جوليا بأذي أو على أقل ألا أرى هذا بأم عيني.

لم تستجب السماء لدعواتي وسحبوني أنا وجوليا إلى غرفة مُقبضة باردة مليئة بالأدوات الطبية، يُخيم عليها رائحة لم أدرك غيرها طوال

فتـرة بقائي في أوشـفيتز إنها رائحة المـوت، كانت جدرانها كئيبة لدرجة الاختناق وجميع من بداخلها يتحركون وكأنهم آلات وليسـوا بشـرفي رتابة مخيفة، أصوات معدنية تصدر عن تحريكهم المعدات الطبية يثير الرجفة في الجسد.

وبعـد قياس الـوزن والطـول لكلينا أجـروا لنا بعـض الاختبارات الطبية الروتينية، ووسـط كل هذا لن أنسـى نظـرات جوليا المتنقلة بيني وبينهم، كانت أوصالها ترتعد مسـتغيثة بي كي أعينها ولكن الخوف ألجم فاهها، كنت أمسـح دموعي سـريعًا كي لا يلاحظني أحـد وأحشـائي تتمـزق مـن الخـوف، وبعـد الانتهـاء مـن كل تلـك الإجراءات.

وضعونـي أنـا وجوليا في غرفة منفصلة، لن أنسـى حضنها لي في تلك اللحظة، لم نتحدث.. فقط بكينا وكثيرًا.

تَمّ وضعنا في مكان أخرأشـبه بثلاجـة الموتى لَم يقل كآبة عمّا قبلـه بـل ويزيد، كانـت الليلة حالكة السـواد ولَم يزر النـوم عيوننا حتى بزغ الفجر، تنامى إلى مسامعنا وقْع أقدام رتيب يقترب ويقترب، وفُتح باب الغرفة الحديدي الثقيل وأصدر صريرًا قويًا، دخل شخصان أنا أعرفهما جيدًا؛ إنهما طبيبان مسـاعدان لذلك القصّاب مينغلي لم يختلفا عنه كثيرًا.

نظرت إلي جوليا نظرة لن أنساها في حياتي قبل أن يجروها بعيدًا عنـي وهي تردد بشـفاها: أحبك صوفيّا.. أحبـك. تركوني وحدي في الغرفـة، لأول مـرة ننفصـل أنـا وأختي عـن بعضًا البعـض منذ لحظة ميلادنـا، تذكرت أبي وأمي وكيـف كانت حياتنا قبل اعتقالنا من قِبل النازيين، دارت الدنيا من حولي وانهرت في منتصف الحجرة وأنا أصـرخ بصوتٍ مكتـوم.. لماذا..لماذا؟! ماذا اقترفـت في حياتي حتى أذُق مـرار فقـد الأحبـة في ذلك السـن؟! ماهـو ذنبـي؟! وظللت أخبط

أرضية الغرفة ووجهي في الأرض وأنا أصرخ بدون صوت، أصرُخ بقلبي وروحي جوليا.. جوليا وقد أغرَقت دموعي أرضية المكان في موضع وجهي. وفجأة سمعت صرخات مدويَّة متتالية، كنت قد اعتدت سماع الصرخات بحكم وجودي في معسكر إبادة ولكن تلك المرة كانت مختلفة أنّه صوت جوليا انتفضت كمن لدغه عقرب، بتُّ أدور في الغرفة وأنا أصرخ باسم أختي ولكن تلك المرة بصوت مرتفع، لَم أعد اكترث لشيء، لَم يعُد للحياة معنى، تلك اللحظة هي أكثر اللحظات التي تمنيت فيها الموت من كل قلبي، ارتفعت صرخات جوليا حتى اختفت، وخفتت معها روحي وفقدت الوعي.

لَم أدر كم من الوقت مرّ ولكني استيقظت لأجد نفسي في غرفة تشبه غرفة العمليات إنّها الغرفة الرئيسية في مختبر مينغلي.

كان السكون يخيّم على حجرة السيدة صوفيّا قبل أن يقطعه أدلار قائلا:

- «يبدو أن ما مررت به كان قاسيًا جدًّا جدًّا سيدة صوفيّا»

قالها أدلار وقد بدا على ملامحه الأسى والحزن البالغين، أما إيلينا فقد شعرت أن قلبها ينشطر نصفين ألمًا وكدرًا جرّاء حديث صوفيّا، فرغم عملها كطبيبة نفسية ضمن فريق عمل مسؤول عن صحة نزلاء الدار إلا أنها لم تسمع تلك التفاصيل من قبل؛ فذلك النوع من الذكريات لا يُحتفظ به في ملفات ورقية لأن محلّه الوحيد هو القلب.

كان من المفترض أن ينتهي من العمل على حالة صوفيّا اليوم ولكن في تلك المرة أدلار هو من طلب التوقف عن تكملة قصتها نظرًا لحاجته الشديدة إلى الراحة.

انزعجت إيلينا عندما همّ أدلار بالانصراف وهو على تلك الحالة فهرولت خلفه وهي تناديه:

-أدلار.. أدلار انتظر أرجوك.

توقف أدلار في مكانه ولكنّه لَم يلتفت إليها ، مسكت إيلينا ذراع أدلار برفق قائلة:

-أريد أن أفسر لك ما رأيته في مكتبي.

نظر إليها أدلار قبل أن ينطق بلهجةٍ صارمة:

- أولًا أنا هنا للعمل وللعمل فقط، ولا أملك أريحية الوقت لغير ذلك، أما ثانيًا: فحياتك الشخصية لا تعنيني في شيء فلم أسألك عنها وبالتالي لا أحتاج تفسيرك.

ثُمّ سحب ذراعه الذي كانت إيلينا لاتزال ممسكة به بشدة وانصرف.

اعتصر الحُزن قلب إيلينا وسقطت دموعها ، وفي نفس الوقت أدركت أن شعورها تجاه أدلار تخطّى مرحلة الإعجاب، بل تبين لها أنه يبادلها نفس المشاعر.

عاتب أدلار نفسه على تلك الأحاسيس المبعثرة داخل صدره، تمنّى أن تكون تلك المشاعر شيء مادي ملموس يمكنه التخلص منه وإلقاءه بعيدًا عن قلبه في الوقت الذي يريده.

ولكن هكذا هو الحب يقتحم القلب بدون استئذان متجولًا في روحك ودمك راسمًا صورة الحبيب بين حنايا قلبك بدون أدني سيطرة من المحّبِ على ذلك المحتل وربّما لا يفارقك إلا بخروج الروح من الجسد.

جلس أدلار بين أوراقه وجهاز تسجيله ليدون المعلومات الخاصة برسالته العلمية، وبعقلٍ مشوشٍ وذهنٍ شاردٍ لَم يستطع أن يكتب كلمة واحدة، صورة إيلينا وحديثها مع ذلك المدعو بروس كانت تقتله في اللحظة ألف مرة، وراح يسأل نفسه:

- لمـاذا كانـت تبادلنـي الإعجاب؟ لماذا يسـرت لـي الطريق إلى قلبها واقتحمت قلبي وجوارحي بعدها بتلك القوة؟

أخـذ نفسًـا عميقًا ثُم زفـر زفرة حارّة واضعًا وجهـه بين كفيه لَم يخرجه إلا ذلك الذي دق باب منزله بدون موعد سـابق، نظر أدلار إلى تلـك السـاعة الكبيـرة المعلقـة على حائـط غرفة مكتبـه ليجدها تخطّت العاشـرة، فمن ذَا الذي يأتيه في تلك السـاعة المتأخرة؟ كل هذه الأفكار جالت في خاطره بينما كان ذاهبًا ليفتح الباب ليتفاجأ بإيلينا واقفة أمامه تحمل مظلتها لتقيها شدة المطر في الخارج.

«آسـفة على مجيئي في تلك السـاعة المتأخرة بدون ميعاد» قالتها إيلينا.

فأجابها أدلار بطريقة رسمية:

- لا عليك دكتورة إيلينا، تفضَّلي فالمطر شديد بالخارج.

دخلـت إيلينـا على اسـتحياء ثُـم توقفت ناظـرة لعيـون أدلار: أدلار أرجوك دعني أوضح لك بعض الأمور.

فأجابها أدلار بصرامة:

-إن كانت أمور تخص العمل فيمكننا مناقشـتها غدًا، عدا ذلك فليس هناك داعي للخوض في أمور لا تعنيني.

اعتصرت كلماته قلبها ولكنها أصرت على الحديث فاستكملت حديثها والدموع تملأ عينيها:

- منـذ قرابـة ثلاثة أعـوام تعرفت بشـاب، كنت أظـن أنني أحبه وتزوجنـا ولكـن خاب ظنـي فيه، فلم يكـن هو فتـى أحلامي الذي لطالما حلمـت به، فأقمت دعوة في المحكمة وحصلت على الطلاق فور تقديم مسـتندات تفيد ضربه وخيانته لـي، ومنذ ذلك الوقت وهو مسـتمر فـي ملاحقتي بشـكل اسـتفزازي، واليـوم جاءنـي يريد أن

يتحدث معي بشأن التغيرات التي حدثت في شخصيته وأنه أصبح ذلك الإنسان الذي حلمت به، وقد وافقت على مقابلته كما سمعتني فقط لأنهي الأمر بهدوء؛ ولكي أخبره أن هناك شخصٌ أخر استملك قلبي وسكن في حناياه، إنه أنت أدلار.

كشخصٍ مثل أدلار يشعر بالحب لأول مرة؛ حتمًا ستتوه الكلمات منه ويشعر أن لسانه مقيد ولكنه اكتفى بالصمت رغم أن قلبه كاد يقفز من صدره لشدة فرحه باعتراف حبيبته له بحبها وبراءتها من التلاعب بمشاعره، هكذا كان حال أدلار الذي فضحته عيناه بفيض حبٍ لَم يمكنه السيطرة عليه؛ مما شجع إيلينا أن تقترب منه هامسة بصوتٍ هادئ:

-أحبكَ أدلار.. أحبك.

فلم يكن منه سوى أن عانقها وهو يردّد:

ـ أحبك إيلينا.

وغرق الحبيبان في نهر من الشوق الجامح بتناغم حالم ،وشربا منه حتى أرتوى كليهما.

كان صباحًا مشرقًا استيقظ أدلار مبكرًا كعادته وراح يدندن بأغنية رومانسية بينما كان يرتدي ملابسه وصورة إيلينا وهي تفصح له عن حبِّها لَم تفارق خياله وصار يردّد بصوتٍ مسموع:

-أحبك إيلينا.

ذهب إلى دار العجزة ليستكمل تسجيله لشهادة صوفيّا ولكنه مر على مكتب إيلينا أولًا ووضع لها باقة صغيرة من الزهور وورقة مكتوب فيها أحبك وكفى.

كانت إيلينا تمرّ على النزلاء قبل أن تدخل مكتبها لتجد رسالة أدلار مصحوبة بباقة لافندر، فاحتضنت الباقة بحبٍّ شديد وأغمضت

عينيها وراحت في بحرٍ من العشق، لَم يخرجها منه سوى صوت إحدى الممرضات تطلبها في حجرة السيدة صوفيّا.

ابتسم أدلار ابتسامة مفعّمة بالحب فور رؤيته لإيلينا عندما دخلت حجرة السيدة صوفيّا، احتلت لغة العيون بينهما مكان أي لغة في العالم وتدفقت حِمم العشق لتغرق الحبيبين في بركان الحب بينما تدفق بركان آخر من الذكريات الأليمة في قلب صوفيا عندما شرعت في استكمال سردها المؤلم عن أحداث مختبر الموت:

- وجدت نفسي ممددة على منضدة قاسية باردة، أنظرُ إلى سقف مزوّد بكشافات كبيرة قوية الإضاءة حاولت أن أتلفت حولي في محاولة مني لاستيعاب ما يحدث، لمحت فتاة مُستلقية هي الأخرى على منضدة مجاورة وكان مينغلي ومساعديه منهمكون في العمل عليها بوحشية والدماء تغطي معاطفهم، وذاك الصوت المعدنيّ للأدوات الطبية ولكن تلك المرة كانت الأدوات ترتطم بعظام الفتاة الراقدة أمامهم في استسلام تام، مددت رقبتي بصعوبة ومن النظرة الأولى لهيئتها أيقنت أنها هي توأمي، ومن تبقى لي في تلك الحياة القاسية.

كانت صامتة.. جامدة لا تحرّكُ ساكنًا، حاولت النهوض ولكني كنت مقيدة الأطراف، فرفعت رأسي بصعوبة لأرى أكثر المشاهد ألمًا ووجعًا ورعبًا على الإطلاق، فقد كان صدر جوليا مشقوقًا طوليًا وأحشاءها متدلية غارقة في دماء بدأت في التجلط مما يوحي أنها قد فارقت الحياة منذ فترة ومع ذلك لَم يرحموها، لَم يستوعب عقلي الصغير وقتها ذلك المشهد لتدور الدنيا من حولي بعدها وأفقد الوعي مرةً أخرى.

صمتت السيدة صوفيا كعادتها عند سرد مشهدٍ مؤلم من واقع تواجدها في أوشفيتز، ولكن وقع هذا المشهد بالذات كان قاسيًا

جـدًا عليها ، استنشـقت بعـض الهواء فـي محاولة منهـا لتخطي ذلك الشعور واصرّت على استكمال حديثها منتحبة :

-لَـم يكُن هناك أيّ قانونٍ ولا أي جهةٍ لردع مينغلي ، والتوقف عن تلك الجرائم السادية في حقنا كأسرى بل كان من المدللين من قبل الحكومة النازية فملاك الموت يعمل على تحسـين سـلالتهم الآرية ، حسب أيدولوجيَّتهم النازية بإبادة جميع الأعراق في سبيل خلو جنسهم من الأمراض الوراثية وغير الوراثية.

قاطعهـا أدلار علـى غيـر عادته في تركـه لها حتى تنهـى حديثها ناطقًا في دهشة :

- «أكان كل ذلـك تحـت سـمع وبصـر الحكومـة الألمانيـة؟ أتوقع سـيدتي أنـكِ مخطئة في هـذا الأمر وإلّا لمـاذا تمت محاكمة الأطباء الذين أجرموا وهم قلة وكلُّ شـعب به الصالح والطالح و تُعد محاكمات «نورنبيرغ» من أشـهر المحاكمات التي شـهدها التاريخ المعاصر».

ضحكَت صوفيّا ضحكة باهتة قائلة :

- وأليس هذا دليلًا على صحة كلامي؟!

شعر أدلار بالحرج من سؤال صوفيّا فلم يجد ردًا مناسبًا لتبرير تلك الجرائم اللاإنسانية حتى وإن كانت حوادث فردية من أشخاص تمت محاكماتهـم حسـب اعتقاده؛ فرواية السـيدة صوفيّـا أثبتت عكس ذلك ، فلم يتوقف الأمر عند شخص أو اثنين بل كان انتهاكًا ضاريًا في حق الكثير من الأبرياء.

اكتفى أدلار بالسكوت قبل أن يبتسم ابتسامة خاطفة دليلًا على شـعوره بالخجل من تبريره الواهي أمام سـيدة تجرعت العذاب والظلم بشتّى أنواعه.

حتى أن السيدة صوفيّا شعرت بخجله؛ فشرعت في استطراد باقي كلامها دون أن يطلب أدلار منها ذلك:

«صوفيا كلود تقدمي» جاءني من ينادي على اسمي وأنا مستلقية على فراشٍ بالٍ وقد برزت عظامي وأصبحت مجرد هيكلٍ عظمي مكسوٍ بالجلد، بعيون جاحظة وحليقة الشعر تقدمت نحو الباب ليتم أخذي ليستكمل مينغلي باقي أبحاثه عليّ كما قد بدأها على أختي والتي علمت بعد ذلك أنه أجرى جراحته الإجرامية عليها دون مخدر حسب ما اعتاد فعله بالأطفال دون أن ترمِش له عين.

بُترت بعض أصابعي وقدمي كما ترى في أحد التجارب الفاشلة، ليتساوى التشوّه الخارجي لجسدي مع التشوّه الداخلي لروحي كلٌ على حدٍ سواء، ومنّا من أصيب بالعمى ومن قد أصيب بالشلل وتَم إهماله حتى مات، ومن التوائم من تمّت خياطتهما بعضهما البعض زعمًا من ملاك الموت أن قد يُمَكنه ذلك من استكمال بحثه في علم التوائم الملتصقة، حتى تعفّنت جروحهما ليلقوا نفس مصير جوليا وغيرها.

احتضنت إيلينا السيدة صوفيّا بشدة في محاولة للتخفيف عنها حتى لا تسوء حالتها النفسية جرّاء اجترار تلك الذكريات الدامية قائلة:

«أنتِ سيدة قوية وجميعنا يفخر بكِ، وبالتأكيد أن جوليا ووالدك ووالدتك وغيرهم في نعيم أزلي لا يوجد به ألم وقد تحرروا من أجسادهم ليتحولوا إلى أطيافٍ تطوف حولنا الآن قائلين لكِ: نحن بخير صوفيّا فاطمأني».

وأحكمت إيلينا ذراعيها حول صوفيّا مستطردة «اطمئني صوفيّا.. شششش اطمئني.

- «آسف للمقاطعة»

قالها أدلار ليستكمل بعض النقاط قبل أن ينتهي من قصة السيدة العجوز:

- «ولكن سيدتي كيف نجوتِ بحياتك من المعسكر؟»

مسحت صوفيّا دموعها وهي تُبعد جسدها عن ذراعيّ إيلينا بهدوء قائلة: إنها معركة الهروب الكبير يا دكتور أدلار كما أطلقوا عليها.

قلبٌ حائر

شعر أدلار أن السيدة ستشرع في سرد قصة معركة الهروب الكبير قبل أن تفاجأه بأن هناك شخصًا آخر هو من يستطيع سرد تلك القصة أفضل منها، شخص تجرّع من المعاناة ما يكفيه ليكون هو بطل معركة الهروب الكبير، إنه «فلاديمير ديمتري».

هزّ أدلار رأسه قائلًا:

- ليتني أستطيع مقابلته!

نطقت إيلينا بسرعة لكي تنقذ حبيبها من الحيرة:

- إنه نزيل هنا يا أدلار.

تهلّلت أسارير وجهه فور سماعه ذلك الخبر، فذلك يعني أن هناك منجمًا من المعلومات سيُفتح أمامه.

وقبل أن ينصرف أدلار هبّ واقفًا ليشكر السيدة صوفيّا على حسن تعاونها معه ولكن هناك كلمة أخيرة ودّ أدلار توجيهها للسيدة صوفيا:

- كوني ألماني الجنسية أعتذر منكِ سيدتي عن أيِّ ألَم عانيتيه وعن كلِّ ظلم وانتهاك تعرضتي له أنتِ وأسرتكِ، أتمنى أن تقبلي اعتذاري، وآسف إن كنت قد حرّكت بداخلك الماء الراكد.

- لا داعي للاعتذار، فالماء لَم يصفُ يومًا دكتورأدلار، فتلك الذكريات ستلاحقني حتى تدفن معي في قبري، ولكني سعيدة كوني صححت لكِ بعض المفاهيم؛ فشتان بين سلامكَ لي الآن وأول مرة التقينا فيها، أتمنّى أن أراك مرة أخرى.

فردّ أدلار:

- وأنا أيضًا سيدة صوفيّا، أراكِ على خير.لملَم أدلار أدواته وأوراقه التي يدون فيها ملاحظاته وهم بالخروج بصحبة إيلينا.

ضغطت إيلينا على يد أدلار وهو يودعها عند بوابة المبني وهي تنظر في عيونه بعيونٍ ذابت عشقًا فيه:

-سأراك الليلة؟

- كنت أُودّ ذلك حبيبتي ولكني مشغولٌ الليلة بتفريغ محتويات باقي التسجيلات الصوتية للسيدة صوفيّا وسوف ...، قاطعته إيلينا بلهجة تحمل بعض الصرامة: هل سأراك الليلة أدلار؟ ابتسم أدلار عندما تبين ملامح الغضب على وجه حبيبته والذي لَم يزدها إلا جمالاً وبراءة فكانت مثل الطفلة الصغيرة متعلّقة في ذراعه فلم يستطع أن يكسر قلبها فهو أيضًا يشتاق إليها كما هي بل أكثر.

وفي المساء انهمك الحبيبان في تناول العشاء في مطعمهما المفضل والتحدّث عن السيدة صوفيّا وأراد أدلار معرفة بعض المعلومات عن «فلاديمير ديمتري» تلك الشخصية التي ذكرتها صوفيّا في آخر حديثها والذي كان مسؤولاً عن هروب الأسرى من معسكر أوشفيتز سوبيبور، حتى استوقفته إيلينا في مرح طفولي قائلة:

- كفى حديثًا عن العمل، ألا تستطيع التحدث في شَيْءٍ آخر.

ضحك أدلار قائلًا:

- مثل ماذا؟

استشاطت إيلينا غضبًا ثُمّ جزت على أسنانها:

- مثل الشجر والسيارات والطاولات، ثُم وضعت قطعة لحم كبيرة داخل فمها وتحدثت بفمٍ مليء بالطعام، تحدّث عن اللحم نعم

فهـو جيد ثُم تمتمّت بكلمات غير مفهومة لينفجر أدلار ضاحكًا من تعابير وجهها قائلًا:

- بلى يمكنني التحدث عن شيء آخر.

فقالت بتهكّم:

- مثل ماذا؟

فجاءها الرد:

- مثـل عيونـك التي أغـرق داخلها وقلبـك الذي أسـمع دقاته الآن وحُبُّكِ الذي غيَّر حياتي.

احمرت وجنتاها من الخجل وأطرقت برأسـها في صمتٍ مُسـتحَق داخـل حـرم الحُـب، انتهـى الحبيبـان مـن العشـاء وودّع كل منهمـا الأخربعد انتهاء بطريقتهما الخاصة.

وفي صباح اليوم التالي استغرق أدلار الكثير من الوقت في تفريغ محتوى التسـجيلات للجزء الخاص بالأسـرى من الأطفال على لسـان السـيدة صوفيّـا، وتوثيق كلامهـا ومطابقته بالكثير مـن المصادر والأبحـاث التاريخيـة، ورتـب أوراقه فـي تلك الجزئية واتجه مباشـرة إلى جامعة موسكو لمناقشة دكتور أليكسندر في آخر مستجدات الرسـالة. استقبله الأخير بابتسامته الباردة المعهودة ولكنته الروسية الطاغية على إنجليزيته، فلم يتغير شـيء في الأمر سـوى أدلار نفسـه والذي لَم يواجه نفس الشعور لحظة دخوله إلى الجامعة أوّل مرة، لقد كان هادئًا مستقرًا داخليًا.

يبدو أن حديثه مع السيدة صوفيّا صحح لديه الكثير من المفاهيم أو ربّما الحُب الذي دق بابه ليدفئ قلبه ويصحح بصيرته.

تمـت المقابلة وقد أشـاد دكتور أليكسـندر بالجـزء المكتوب من رسـالة أدلار والـذي التزم فيه المهنية لأقصـى درجة على عكس

توقعاته، فقد اعتقد أليكسندر أن شخصًا ألماني الجنسية أبدًا لن يكون على هذا القدر من الشفافية في سرد أسرار ستظل وصمة عار على جبين الألمان، فقد أسهب في التفاصيل كما هي دون تحريف أو تضليل.

ـ «أكاد أؤكد لك حصولك على الدرجة العلمية مع مرتبة الشرف أدلار».

قالها دكتور أليكسندر في نهاية المقابلة.

ـ هذا شيء يسعدني دكتور أليكسندر.

ـ إذن ما هي خطتك القادمة في الجزئية الخاصة بالبحث الميداني؟

ـ سأستكمل مقابلاتي مع الناجين من المعتقلات وتدوين شهادتهم كأفراد عاشوا ذلك الواقع.

صمت دكتور أليكسندر قليلًا وقد ملأ وجهه علامات استفهام كثيرة قبل أن ينطق: الحقيقة أنا مُتعجبٌ منك يا أدلار ولا أقصد أبدًا التدخل في حياتك ولكن هناك شعور دفين داخلي أن الأمر يتعدى كونك تقوم بتحضير رسالة علمية.

استقبل أدلار كلمات دكتور أليكسندر بارتباك شديد حتى أنه تعثّر في إيجاد الرد المناسب لبرهة من الزمن قبل أن يرد: جل مافي الأمر أني شخصي دقيق جدًا، أهتم بعملي كثيرًا وأسعى دائمًا للتميز.

تفحص دكتور أليكسندر المعروف بفراسته وجْه أدلار أثناء رده الدبلوماسي الذي لم يقنعه نهائيًا فبات متأكدًا أن هناك أمر آخر هو المحرك الرئيسي لأدلار في ذلك الاتجاه.

حسنًا أدلار أتمنى لك التوفيق في الجزء المتبقي لك من الرسالة،

وقبل أن يصافح أدلار سأله: أخبرني، هل الدكتورة إيلينا متعاونة معك على النحو المطلوب؟

مجرد ذكر اسم إيلينا دفع في قلب أدلار نبضات متتالية من الاشتياق ليرد بعفوية:

- إنها رائعة، فشعر بالحرج من رده وكأن قلبه مَن نطق بدلًا عنه ليستكمل في هدوءٍ مُصطنع:

-أقصد جدًا، متعاونة جدًا دكتور أليكسندر.

ابتسم أليكسندر وهو يصافح أدلار بينما خرج الأخير من الباب ومازال عقل أليكسندر مُصرًا أن وراء أدلار أمرٌ آخر غير الرسالة العلمية، أمرٌ يبدو أنه يمثّل نقطة فارقة في حياته.

دلف أدلار إلى منزله بينما كان يرن هاتفه المنزلي ليلقي ما في يده ويرد سريعًا؛ فجاءه صوت إيلينا على الجانب الأخر:

ـ حبيبي.. اشتقت إليك كثيرًا واستطردت ببراءتها المعتادة :

هيا يجب أن تستكمل رسالتك دون تأخير أيها الباحث.

ـ اعذريني يا حبيبتي أني لم استطع القدوم إلى الدار اليوم، فقد استغرق اجتماعي مع دكتور أليكسندر الكثير من الوقت وهناك بعض التعديلات التي يجب أن أقوم بها وسوف...

قاطعته إيلينا في تأثر: هل هذا يعني أني لن أراك اليوم حبيبي؟

ـ آسف حبيبتي ولكني بالفعل مشغول كثيرًا وسآتي باكرًا إلى الدار.

ردت إيلينا بخيبة أمل:

ـ حسنًا حبيبي..أراك غدًا، أحبك..مع السلامة.

شـعر أدلار بأنه ربما يكون أحزنها ، فهونفسه لَم يعد باستطاعته أن يمـرَّ يوم دون رؤيتها فانتزع سـماعة الهاتف والتي لم يرفع يده عنها بعد ليطلب رقم هاتف مكتب إيلينا سريعًا ليأتيه صوتها وبه بحّة حزن ليفاجأها بقوله:

ـ سأقابلك الليلة عند الممشى المائي في تمام التاسعة ، اتفقنا؟

لترد عليه حبيبته دون تردّد وقد تبدّل حالها مائة وثمانون درجة من الحزن للسعادة الغامرة:

ـ اتفقنا.

«اشتقت لك كثيرًا»

قالتها إيلينا وهي تغمرُ أدلار بشوقها عند الممشى المائي.

كنـت أعتقد أني أقوى من ذلـك إيلينا ، فلم يعد بإمكاني أن يمر يـوم فـي حياتـي دون أن أراكِ ، اعتـرف بضعفي أمام حبُّـك يا أميرتي والعجيـب فـي الأمر أني لا أخجـل من ذلك؛ فحبـكِ تملكني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي.

تخضّبت وجنتاها من الخجل أمام كلماته الرقيقة فلم يكن منها سوى أن ألقت برأسها داخل صدره وهي تردد :

ـ أحبك أدلار.. أحبك.

اجتاحت السـكينة كيـان أدلار لمجرد قربها مـن قلبه ليحتضن رأسها معتصرًا إياها بشوق، بينما سقطت تلك الصورة القديمة التي لا تفارق أدلار أبدًا ، لينتبه الأخير أن إيلينا قد دعستها بدون قصد الأمر الـذي جعـل أدلار يدفع حبيبته بقـوة آلمتها فوقفت تنظـر إليه واضعةً يدها فوق موضع الألم وقد اختلطت في داخلها المشاعر مابين العتب والدهشـة وما بين الفضول ولكنها ظلت سـاكنة كتمثال صُقل من

الشمع واكتفت بالنظر إلى أدلار الذي انتبه بدوره إلى ردة فعلته التي خلت من الذوق فقام بعد أن نفض الغبار عن الصورة محاولاً أن يمسك كتفي إيلينا معتذرًا.

ـ عـن ماذا تعتذر أدلار؟ أعلى دفعك لي بهذه القوة وبتلك العدائية؟ أم تعتـذر عـن كونك غير صريح معي كما كنت معك وقد أخبرتك بكل تفاصيل حياتي من قبل أن أعرفَك؟ لماذا تحتفظ لنفسك بجانبٍ مظلم لا تواجد لي فيه؟

عجـز أدلار عـن الرد على تسـاؤلاتها؛ فالتـزم الصمـت تمامًا مما زاد الأمـر تعقيـدًا لتتوقف إيلينا لحظات قليلـة تتنقل فيهن عيونها بين عيون أدلار في محاولة منها لمحاولة فك شفرة السر الذي يخفيه عنها ولكـن أدلار ظـل ثابتًا حتى أطرق برأسـه لترفع إيلينـا أحد حاجبيها دليلاً على عدم تصديق ما يحدث أمامها فحدثت نفسها:

- هـل هـذا أدلار الـذي أحبـه وأصبحـت أمامـه كتابًـا مفتوحًـا متحكمًا هو في صفحاته؟

ثُم اقتربت من وجه أدلار قائلة:

ـ تبًا لك يا أدلار!

وأدبـرت مسـرعة تاركـة إيـاه وحيـدًا بينمـا أنهمر المطر بشـدة لكن العاشق لم يكن عابئًا بغير عشيقته التي تركته لأمرٍ عزَّ عليه التحدث عنه.

عـاد أدلار إلـى بيتـه وأخـرج الصورة التـي لا تفارقه ليطيـل النظر بها حتى غلبه النوم، فلم يوقظه سـوى شـعاع الشـمس المتسـرب من النافذة، كانت ملابسـه لازالت مبتلة والإرهاق نال منه مناله ولكن حتمًـا عليـه الذهـاب إلى دار العجزة لاسـتكمال بحثـه، وداخل هذا

الضجيج القابع في رأسه تذكر إيلينا فشعر بأن قبضة الحزن تعتصر قلبه بشدة، أصبح أدلار في حيرة من أمره ولكنه قرر الذهاب وليدع الأمور تسير في مسارها الذي رسمه لها القدر.

وفي داخل دار العجزة كانت إيلينا قد ذهبت للعمل مبكرًا فهي لَم تذق طعم النوم طوال الليلة الماضية. تجمَّدت في مكانها فور رؤية أدلار، كانت كمثل بركان مدفون في أحضان جبلٍ من الجليد، كان سلامها أبرد من الطقس في الخارج، تحدّثت في لهجة رسمية جدًا وأخبرت أدلار أن السيد فلاديمير ديمتري وافق على إجراء الحوار معه والتحدّث بصفته أحد الناجين وشاهدًا آخر على أحداث معتقل أوشفيتز. كانت قسوتها طعنة قوية لقلب أدلار ولكنه جاء في مهمةٍ حتمًا عليه إنجازها.

وأمام حجرة السيد فلاديمير وبينما كانت إيلينا تهم بالدخول، استوقفها أدلار قائلًا:

ـ لا أتحمل قسوتك هذه إيلينا.

نظرت إليه إيلينا في تعجب قائلة:

ـ ومن ذا الذي اختار القسوة بديلًا عن الحب يا أدلار؟ أنت من تحمل صورة امرأة في جيبك وقد لاحظت اهتمامك الزائد بتلك الصورة ولم تفصح يومًا عن هويتها رغم إلحاحي في السؤال عنها، فلم تكن عابئًا بما يجول في صدري والشك المحمل بعلامات استفهام غُرزت في قلبي، لم تكترث لغيرتي والتي هي منبع حُبّي، رُغم أني احترمت مشاعرك عندما كان الموقف معكوسًا، أتذكر؟

هزّ أدلار رأسه في صمت وقد حاول فتح فمه لينطق ولكن كان هناك ثمة ما يمنعه.

لتنطـق إيلينـا فـي انفعال: مرة أخرى لا اسـتقبل منك جوابًا سـوى الصمـت.. والصمـت فقـط، إذن لا تطالبنـي بأكثـر مـن معاملتـك كمجرد باحث يحتاج إلى المسـاعدة لاسـتكمال رسـالته، وواجبي نحـو وطنـي يحتـم عليّ مسـاعدتك حتـى يعـرف العالم مدى القسـوة والظلم الذي عاناه هؤلاء المسـاكين داخل معتقلاتكم النازية، تلك الأسرار التي لم ولن تروى سوى على ألسنة هؤلاء.

وهذه المرة لم تنتظر منه ردًا وأسرعت بالطرق على الباب والدخول فورًا إلى حجرة السـيد فلاديمير وسـط عجز تام عن التبرير من جهة أدلار.

❖ ❖ ❖

الهروب الكبير

وفي داخل الحجرة عرفَّ أدلار نفسه إلى السيد فلاديمير ووضع أدواته وأوراقه على منضدة مجاورة لسرير الأخير وقبل أن يستهلَّ حديثه باغتته إيلينا بتوجيه حديثها للسيد فلاديمير وهي ترمق أدلار بلحاظ عينها:

ـ على فكرة الدكتور أدلار يمكنه التحدث بالروسية بطلاقة.

نظر إليها أدلار وقد فهم مقصدها، فهي لم تعد تريد التواجد معه في نفس المكان.

ثُم استطردت: سأظل متواجدة في الجوار في حال احتجت أي شيء سيد فلاديمير ولكن عذرًا فعندي الكثير من العمل اليوم، وخرجت متحاشية النظر إلى أدلار كُليًا.

ورغم معاناة أدلار جراء الحيرة بين حبيبته وبين السر القابع في حنايا قلبه إلا أنه بدأ حديثه مع السيد فلاديمير في محاولة منه لفصل حياته الشخصية عن العمل.

- «سيد فيلاديمير هل يمكنك تعريف نفسك قبل أن تستهل سردك لوقائع معركة الهروب الكبير من معتقل أوشفيتز؟» قالها أدلار

- قبل أن أعرف نفسي هل تقابلنا من قبل؟

فأجابه أدلار:

- «لَم أتشرف بمعرفتك من قبل سيد فلاديمير وتلك هي المرة الأولى التي أزور فيها روسيا».

- إذن لا عليك دكتور أدلار يبدو أن الشيخوخة نالت مني منالها عمومًا أنا فلاديمير ديمتري أحد الضباط في الجيش السوفييتي سابقًا، أبلغ من العمر خمسة وسبعون عامًا.

- «الآن سيد فلاديمير بإمكانك سرد ما تريده دون قيد أو شرط، فقط الحقيقة كاملة باعتبارك شاهد على الأحداث».

- جميلة هي الحرية التي لطالما افتقدناها لفترة طويلة، ثُم أخذ نفسًا عميقًا ومد يده المرتعشة بفعل الشيخوخة ليأخذ رشفة من الكوب الذي إلى جواره مستكملًا حديثه: ولكن اسمح لي بسؤال دكتور أدلار كيف اتقنت اللغة الروسية بهذه الطلاقة؟

تنحنح أدلار واعتدل في جلسته فقد كان هذا أخر سؤال يود أن يطرحه عليه أحد بالذات في تلك الفترة ولكن رده الدبلوماسي بأن لديه شغف لتعلم اللغات لَم يكن مقنعًا أبدًا لضابطٍ محنكٍ مِثل فلاديمير. واستهلَّ الأخيرحديثه قائلًا :

ـ تم أسري أنا ومجموعة من ضبَّاط الجيش السوفييتي وقتها ليتم إيداعنا داخل معسكر أوشفيتز مع عدد كبير من اليهود بما فيهم زعيم اليهود نفسه، كان المعسكر يعجُّ بالأسرى ما بين الأوروبيون والسوفييت حتى أن الألمان اليهود أو المعادين للعنصرية أو مختلطي الدماء بين البيض والسود ألمانيِّ الجنسية لَم يسلموا من ذلك.

هاينريش هيملر كان من أقوى رجال أدولف هيتلر وأكثرهم شراسة، قاد فرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السري المعروف بالجيستابو وأشرف على عمليات إبادة المدنيين في معسكرات الموت الألمانية حيث عمل كرئيس للوحدة الوقائية في الجيش النازي، كما يعتبر هيملر أباً للهولوكوست، حيث بدأ عام ١٩٣٣ بإنشاء المعتقلات وملاحقة اليهود والغجر والشيوعيين

والمثليين حتى المعاقين وأيّ عرق غير العرق الآري.

كان أدلار مصغيًا لحديث السيد فلاديميربشكلٍ كامل، واستطرد الأخير صاحب الملامح الروسية القوية والتي لم تؤثر عليها التجاعيد حديثه بثبات وقوة رجل عسكري:

ـ يعتبر معسكر أوشفيتز من أكبر معسكرات الاعتقال النازية والذي تحول من معسكر وحيد يضم اثنان وعشرون مبنى إلى ثلاث معسكرات رئيسية و٤٥ معسكر فرعي.

ثُم صمت السيد فلاديمير وأغمض عينيه وهو يسترجع تلك الذكريات القاسية التي عاناها داخل معسكر أوشفيتز:

ـ «تحركوا جميعًا إلى الداخل هيا.. هيا».

قالها أحد الضباط النازيين فور وصولنا إلى المعسكر مع دفعنا بظهر أسلحتهم في إهانة متعمدة وبالطبع كضباط من الجيش الأحمر كان لنا معاملة مختلفة، خاصة أننا أعداؤهم حتى النخاع.

جلسنا جميعًا في تلك الغرفة المظلمة وكلٌّ منا يعلم جيدًا أنّ موته صار أمرًا حتميًّا فقط هي مسألة وقت، وفي أحد الأيام قدم إليّ أحد المعتقلين معرفًا نفسه:

ـ حاييم إيزاك زعيم اليهود في المعتقل.

ـ وأنا فلادمير ديمتري أحد الضباط السوفيتّ وهذا زميلي «مارك يوري».

استوقف أدلار السيد فلاديمير بعفوية مرددًا: مارك..يوري.

قضب فلادمير حاجبيه بينما كان يحاول أن يدرك لماذا استوقفه أدلار بهذه الطريقة؟

وقد لاحظ أدلار ذلك ليتدارك الأمر معتذرًا عن المقاطعة:

ـ تفضل سيد فلاديمير.

استمر السيد فلاديمير في سرد حقائق متطابقة كليًا مع شهادة السيدة صوفيّا من حيث الانتهاكات الإنسانية والقتل الممنهج عن طريق الأعمال الشاقة والتعذيب والتجويع أو إطلاق النار عليهم فرادى، أومن خلال إطلاق النار عليهم بشكل جماعي، مثلًا في وادي «بابين جار» بالقرب من العاصمة الأوكرانية كييف أو في غابة بونار قرب فيلنيوس، على سبيل المثال لا الحصر. إلا أن أوشفيتز يشكل رمزًا لجميع هذه المعسكرات، فالنازيون مارسوا فيه القتل بأقصى حد، ولا يوجد معسكر إبادة نازي آخر غيره قتل فيه مثل هذا العدد الكبير من الأشخاص بمثل هذه الصورة الوحشية وفي مثل هذا الوقت القصير. اكتفى أدلار بهذا القدر من الحديث مع السيد فلاديمير، وشكره على سعة صدره ثُمّ توجّه أدلار بعدها إلى بيته لتفريغ محتويات التسجيل كالعادة ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا، فظل يعيد سماع الجزئية الخاصة باسم (مارك يوري) مرارًا وتكرارًا ثُم أخرج الصورة القديمة من جيبه واستزاد في التمعن بها طويلًا ثُم أخذ نفسًا عميقًا وأطلق زفرة حارة قائلًا: لقد اقتربنا.. كثيرًا. ثُم وضع الصورة في جيبه وبات يربّت عليها برفق.

كان حنينه لإيلينا غالبًا على أيِّ شعور أخر وبدون تفكير وجد نفسه يطلب هاتفها المنزلي ليأتيه صوتها غارقًا في محيطٍ من الحزن:

ـ ألو... ألو

صمت أدلار قليلًا قبل أن ينطق في تردد: إيلينا..

انتحبت الفتاة قليلًا قبل أن تنطق:

ـ ماذا تريد مني يا أدلار؟

فأجابها: أريدك أنتِ إيلينا.. لم أعد أستطع العيش بدون أنفاسك، بل وبتّ أتعجب كيف كنت أعيش سنواتي الماضية بدونك؟ كيف لي أن أحيا بدون روحي وقلبي اللذان لَم يعودا ملكًا لي بعد؟

ردت إيلينا وقد دخلت في هيستريا من البكاء: أصبحت أنت نقطة ضعفي الوحيدة في الحياة يا أدلار، فبحق قلبي الذي سلبتني إياه وأصبحت دقاته تنطق باسمك من هي صاحبة الصورة يا أدلار؟ من صاحبة الصورة؟

ـ حسنًا إيلينا سأخبرك، أقسم لك أني سأخبرك وخاصة وإنني.. وإنني.. ثُم صمت أدلار مرة أخرى

ـ وإنك ماذا يا أدلار، هناك سر كبير تخفيه عني.

ـ نعم إيلينا هناك ثَمّة ما أخفيه عنك ولكني كنت عازم على إخبارك به في الوقت المناسب.

ـ متى يا أدلار؟ ألهذه الدرجة لا تثق بي؟

ـ لا إيلينا ليس الأمر كما تعتقدين، وجُلّ ما أطلبه منكِ أن تمهليني بعض الوقت وأعدك بعدها أني سأخبرك بالحقيقة الكاملة، فهل تثقين أنتِ بي؟

صمتت إيلينا لبرهة من الزمن وقد توقفت عن البكاء قبل أن تنطق:

ـ بلى..، وأخذت نفسًا عميقًا: أثق بك يا أدلار.

ـ إذن ستحضرين معي التسجيلات القادمة مع السيد فلاديمير؟

ـ بالتأكيد حبيبي.

ـ أحبك إيلينا، أراكِ غدًا.. تصبحين على خير.

ـ أعشقك أدلار.. أحلام سعيدة وواقع أجمل.

أغلق كل منهما الهاتف وهو ينتظر الصباح بفارغ الصبر ربّما لأن أيام الفراق طالت وربما لأن الحقيقة أوشكت على كشف نقابها.

وفي الصباح التقى الحبيبان عند بوابة الدار ليدخلا معًا كلٌّ منهما متعلقًا بالآخر، متشابكي الأيدي وقد تعاهدت عيونهما على البقاء سويًا لأخر العمر وحذف كلمة فراق من قاموس حبّهما إلى الأبد.

استقبلهما السيد فلاديمير بكل بابتسامة ودودة مستكملًا حديثه عن معتقل الموت وكيف اتفق جميع السجناء على خطة الهروب والتي كانت أشبه بعملية انتحارية منها كمحاولة للحصول على الحرية، خاصة وأن جميع المحاولات السابقة باءت بالفشل بل لَم يتوقف الأمر عند ذلك؛ فقد زهقت الكثير من الأرواح إزاء تلك المحاولات، حتى يكون الباحثون عن الحرية من الأسرى في المعتقلات النازية عبرة لمن لا يعتبر.

وقال فلاديمير مستطردًا: لقد اعتبرنا أنفسنا في مركب واحدة، فإما الحرية أو ألّا يكون للحياة أيّة قيمة بعد ذلك، كنّا أنا ومارك يوري المسؤولان عن التخطيط للعملية والتي أطلقنا عليها عملية الهروب الكبير وكان حاييم زعيم اليهود عليه اختيار كل شخص بعناية في مكانه الصحيح من المخطط وكانت الاجتماعات تُعقد في سرية تامّة وفي منأى عن أعين النازيين.

ولكن كان هناك نقطة خلاف بيني وبين مارك يوري ؛بسبب أمر لم أتقبله في البداية، وهي قصة الحب الذي نشأت بينه وبين فتاة ألمانية تدعى كاثرين كانت تعمل في التمريض ضمن الطاقم الطبي للمعسكر، ففي أحد الأيام أصيب مارك بارتفاع شديد في درجة الحرارة وهذا الأمر بالنسبة للنازيين لا يعني سوى شيئًا واحدًا ألا وهو الإعدام الفوري خشية أن يكون المريض مصابًا بأحد تلك

الأوبئـة التي انتشـرت خلال تلك الفترة فسـاعدته الفتـاة كثيرًا في الإبقـاء على حياته، فكان مجرد مسـاعدتها لـه وحمايته من الموت في تلك الحالة تضحية كبيرة جدًا يمكن أن تعرضها لعقوبة الإعدام ومن هنا نشأت قصة حب بينها وبين مارك وتعاهدا على أن يعيشا معًا أو يموتا معًا.

لمح السيد فلاديمير لمعة في عيون أدلار لَم يستطع تحديد سببها هل كان متأثرًا لهذه الدرجة بالقصة أم أن هناك سببًا أخر.

كثيـر من التسـؤلات أراد أدلار الحصول على إجابة عليها، كان التـردد محـركًا أساسـيًا لعقله وبينمـا كان خاطره يعـج بالأفكار اسـتفاض السـيد فلاديمير في شـرح خطـة الهروب الكبيـر: تعاهد جميع الأسـرى وقتها أن يظلوا على قلب رجـلٍ واحد، وكانت الخطة هي تصفية جميع ضباط المعسكر في سريةٍ تامة وفي نفس التوقيت وبهدوء وحذر شديدين، فكان أول القائمين على العملية هو الحائك حيـثُ بَعـث لأحـد الجينـرالات وهو رئيسـهم بـأن معطفه قـد أصبح جاهـزًا ولكـن ينقصه فقط أن يأتيه الجينرال في ورشـته كي يقوم الحائك باللمسـات الأخيرة وقـد كان، حضر الجينرال النازي وأثناء قيامـه بقياس المعطف وإذ به يجد نفسـه مقيدًا به وحينها باغته أحد المسـاعدين للحائـك بضربـة على رأسـه بينمـا انتزع الحائك سـلاح الجينرال ووضع وسـادة قديمة على رأسـه وأطلق عليـه النار، وجاءت البشـرى بنجاح أول خطـوة في الهروب وتوالت الخطـوات الناجحة ما بيـن تصفيتهـم بالرصاص وبين نحـر رقابهم، كانت العملية شـديدة الدقة حيث أن أصغر خطأ قد يودي بحياة الأسـرى جميعًا، والتأخير قد يمهل الجينرالات وقتًا كافيًا لاسـتدعاء قوات الدعم ويشاء القدر أن يأتي ميلر في زيارة إلى المعسكر في ذلك الوقت، وقد شاهد دماء

لازالت ساخنة تنساب في سلاسة ومنبعها كان غرفة الإسكافي، انفعل ميلر عندما فتح الباب ليجد جثة مساعد رئيس المعسكر منحور الرقبة، أُطلقت صفارات الإنذار والتي لازال صداها يتردد بين جنبات عقلي حتى الآن.

صمت السيد فيلادمير ليلتقط أنفاسه اللاهثة وكأنه لازال داخل المعركة الآن وليس ما يقرب الخمسون عامًا قد مضت على الأمر.

حتى أن إيلينا استدعت الطاقم الطبي لكي يفحصوا ضغط دمِه ومستوى السكر أيضًا.

بينما كان صوت قوي بداخل أدلار يصرخ: أرجوك.. أرجوك أكمل فلاديمير أكمل.

نظر الطبيب المختص إلى إيلينا وأخبرها أن كل شيء على ما يرام، فقط لا تدعوه يتعرض لانفعال شديد.

ـ «كيف وإذا كان حال فلاديمير هكذا لمجرد استرجاعه لتلك الذكرى، فما بال حال من في المعسكر وقتها؟» هكذا كان أدلار يحدث نفسه

انتظمت أنفاس السيد فيلاديمير وبات مستعدًا لاستكمال حديثه وكأنه لم يفقد عزيمته العسكرية وروحه المثابرة بعد كل تلك الفترة.

إذن سيد فلاديمير هل يمكنك التحدث الآن؟ قالها أدلار

ـنعم دكتور أدلار ومعذرةً على المقاطعة يبدو أن صحتي لم تعد تحتمل هذا القدر من الانفعال ولكن لا عليك منها.

قالها فلاديمير مبتسمًا وكأنه يعاند الزمن متحديًا شيخوخته مستكملًا بثباتٍ بذل فيه مجهود لإظهاره:

ـ أين توقفنا؟

بادره أدلار بسرعة كمن كان في انتظار الإنقاذ من الغرق:

ـ عند انطلاق صافرات الإنذار فور اكتشافهم عمليات الاغتيال.

أشار السيد فلاديمير بيده تأكيدًا على كلام أدلار مستطردًا: نعم.. كان علينا اتخاذ الخطوة الأكبر والأكثر شجاعة على الإطلاق وهي ثورة جماعية مهما كلفنا الأمر ومهما كان عدد الضحايا، فقد كان البعض منا يحمل أسلحة الضباط الذين تم اغتيالهم، كانت لا تتماشى أبدًا مع عدد القوات التي تواجهنا ولكنها كانت كافية لتأمين البعض أثناء كسرهم السياج الحديدي بعد أن فصلنا التيار الكهربائي عن المعسكر، كان السياج عنيدًا صلدًا تمامًا كما النازيون ولكن الضغط الجماعي كان كافيًا لانهياره تحت الأجساد التي ارتمت فوقه حتى تحطم، ولكل معركة خسائر؛ فكانت خسائر الأرواح فادحة حتى أن مَن تمكن مِن الهروب حوالي مائتي شخص من أصل آلاف من البشر نجا منهم فقط خمسون شخصًا، استطاعوا الهرب إلى المزارع و البلاد المجاورة وقد ساعدهم بعض الفلاحين في التخفي والفرار بعد ذلك إلى عدة دول أخرى.وهكذا كانت نهاية قصة معركة الهروب الكبير.

صمت السيد فلاديمير لحظات بدت كأنها حدادًا على أرواح الأبرياء، أو ربما أبت روحه العسكرية والتي لم تفارقه أن تسمح لتلك الدموع بالانسياب ففضل الصمت ريثما تتقهقر تلك القطرات لتعود أدراجها ويبدو أنه كان محنك في ذلك، ليعود مستطردًا لكلامه بنفس الثبات والقوة:

ـ نجا عدد قليل فقط من التعذيب داخل معتقل «أوشفيتز» النازي، وقُتل عشرات الآلاف في معسكرات الموت بعد أن قامت وحدات

النخبــة النازيــة (إس.إس) بتفريــغ المعتقل على عجــل والفرار غربًا مع قوافل أســرى الحرب والســجناء. وفي عام ١٩٤٥ وصــل جنود الجيش الأحمر السوفييتي إلى سياج الأسلاك الشائكة في معسكر الإبادة، وفــي الموقــع عثروا على مــا يقرب من ٧ آلآف جثة متفسّــخة، وأخرى تحولــت إلى هيكل عظمي لمعتقلي وأســرى المعســكرات، وقد تم تفجير معظم الثكنات وغرف الغاز والمحارق نيابة عن الجناة.

وقــد محــت وحدات النخبــة النازية آثار آلات القتــل الخاصة بهم، مثل الملفات، بطاقات التخزين، شهادات الوفاة، وتم التخلص وحرق كل شيء له صلة بهم على عجل.

❖ ❖ ❖

فيلهلم غوستلوف

«سـيد فلاديمير هل لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة؟» قالها أدلار متساءلًا.

ـنعم بالتأكيد دكتور أدلار تفضل

أين ذهب مارك يوري؟ وما مصير الممرضة التي ساعدته؟

صمت فلاديمير قليلًا قبل أن يرد في تأثر شـديد بدا واضحًا على ملامحه لأول مرة:

ـ لقـد كان زميلـي وصديقي المقـرب مارك يـوري أحد ضحايا معركة الهروب الكبير.

صمـت السـيد فلادمير مـرة أخرى، ولكـن تلك المـرة صارَعَتْه دموعـه وانتصـرت عليه لِتَفِـرَّ هاربة من مقلتيه رُغمًا عنه، ويمسـحها بيده المرتعشة بفعل السن.

سألته إيلينا بعد أن انتابها القلق بشأن حالته الصحية:

ـهل تحتاج للراحة سيد فلاديمير؟.

ـلا يا ابنتي، أنا بخير.

واستطرد فلاديمير في سرده رُغم تأثره الشديد:

ـعند السياج كنت أنا وزملائي نقوم بتأمين الأسرى أثناء محاولة الهـروب، وقتها أصيـب مارك يوري بعيـارٍ ناري في صدره، ليسـقط على الفور بين ذراعيَّ في مشـهد قاسٍ علىَ نفسـي وقد تناثرت دماؤه الحـارة على وجهي وملابسـي، فحملته وركضتُ سـريعًا نحو برميل قديـم لنحتمي به ثُم وضعته على الأرض ووجهه في مقابلتي، وكانت

كلماته الأخيرة التي نطقها بصعوبة:

ـ ما ينمو في أحشاء كاثرين هو ابني أو ابنتي يا فلاديمير، أرجوك ابحث عنها ولا تتركها حتى تتأكد أنها ومن تحمله بأمان، هذه وصيتي أرجوك لا تتهاون في الأمر ابحث عن كاثرين، وظل مارك يردد اسمها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

فبادره أدلار بالسؤال: وما كان مصير كاثرين؟

أجابه فلاديمير:

ـ بحثت عنها وقتها ولكن كانت المعركة حامية الوطيس وكان النازيون في أوج غضبهم فلم أملك الوقت الكافي للرجوع إلى مباني معسكر أوشفيتز والتفتيش عنها، ولكني لَم أنْسَ وصية صديقي أبدًا ما حييت.

- «إذن هل تقصد أنك لم تقابلها بعد ذلك» قالها أدلار

- «للأسف دكتور أدلار فقد بحثت عنها خاصة بعد..

ثُمّ صمت فلاديمير لحظات ربما شعر فيها بالحرج.

باغته أدلار بالإجابة بطريقة هجومية:

لا تخجل سيد فلاديمير أكمل حديثك، خاصة بعد أن هاجم الجيش الأحمر السوفييتي المواطنين العُزل، دعني أنا أكمل لك الحكاية.

تعجبت إيلينا من هجوم أدلار على السيد فلاديمير بتلك الطريقة، ولكن المفاجأة ألجمت فمها، فلم يكن منها سوى أن حاولت أن تهدأ من انفعاله خشية أن يقع مكروه للسيد فلاديمير فحالته الصحية لا تسمح بذلك.

- «أدلار أرجوك لا داعي للانفعال».

- اتركيه دكتورة إيلينا.. لا بأس، أكمل حديثك دكتور أدلار

تفضل يا ولدي أنا أسمعك جيدًا.

واستطرد أدلار حديثه متخليًا عن مهنيته المعهودة لأول مرة:

- أعداد هائلة من المواطنين العزل تشردوا بسبب الهجوم الشرس لقوات الجيش السوفييتي، اُغتصبت النساء بوحشية ثم تـمّ قتلهن؛ حتى أنهن لجأن لمادة السيانيد السامة حتى يتخلصن من حياتهن؛ لتصبح تلك المادة السامة أغلى من الذهب، لَم يرحموا أحد من الفتيات الأطفال حتى العجائز، مسافات طويلة قضوها في السير نحو الموانئ للهروب عن طريق السفن التي ستقلهم إلى بر النجاة. أصيب الرجال بالجنون فمن كان يعترض كان مصيره القتل أمام أفراد عائلته، تجمّد الأطفال من برودة الطقس والذي تجاوز ١٨ تحت الصفر، هل تتخيل سيد فلاديمير أن الغارات الروسية لَم تُبقِ على طريق يمر منه المهاجرون وإلا وضربته محدثةً فجوة في الجليد لكي تبتلع هؤلاء المساكين دفعةً واحدة!، وهناك مَن تجمدوا من برودة الطقس وقلة الغذاء، حتى أن ضروع السيدات أصبحت مثل أغصان الأشجار الميتة ليموت بعدها الرضع كثمارٍ جفت جزوعها.

كان فلاديمير وإيلينا صامتين تمامًا، شعرت الأخيرة أنها تود أن تنتفض من مكانها لتحتضن أدلار لتزيح عنه ذاك الحمل الثقيل ولكن أدلار لَم يتوقف واستطرد كجبل ظل حاملًا هموم الدنيا وانهار فجأة:

ـ ولم يتوقفوا عند هذا الحد فعندما وصل الذين استطاعوا البقاء بعد كل تلك الظروف القاسية إلى ميناء «غيدينيا» انتظرهم الموت هناك.

سفينة «فيلهلم غوستلوف» تلك التي تحولت من سفينة لعلية القوم إلى طوق النجاة من جحيم السوفيتّ.

صمت أدلار قليلًا ليلتقط أنفاسه وقد تدارك أن انفعاله ليس في

موضعـه؛ فالرجل الذي أمامه طاعن في السـن والأخرى هي حبيبته، أطلق زفرة حارة بينما أعطته إيلينا كوبًا من الماء وربّتت على كتفه في حنان أشبه بحنان الأم منه للحبيبة.

بينما تنحنح السيد فلاديمير قبل أن يتحدث في حكمة:

- لا ألومـك أبـدًا يا ولدي على انفعالـك بل كلّي آذانٌ صاغية فقد شـعرت من الوهلة الأولى أن هناك سـرٌ ما تحمله في قلبك، جاثٍ على أنفاسك طوال سنوات حياتك ولا أعلم صدقًا لماذا شعرت أني أعرفك منذ أن رأيتك لأول مرة؛ فهون عليك لأني أعلم أن ما اقترفناه أيضًا لَم يكن جُرمًا يغتفر، أكمل يا ولدي فأنا أسمعك.

شعر أدلار ببعض السكينة جرّاء حديث السيد فلاديمير ولمسات إيلينا الحنونة له شجعته على استكمال حديثه:

- كانت سفينة «فيلهلم غوستلوف" معدة لحمل ألف ومئتان راكبًا ولكن تمّ تحميل أكثر من عشـرة آلاف وخمسمائة راكب معظمهم من الأطفال والنساء.

كانـت الأولوية لمن يحمل طفلًا لذلـك كان البعض من الأقارب يأخذ الطفل ليتمّ السماح له بالصعود ثُمّ يقذفه إلى باقي العائلة لكي يُسـمح لهم بالصعود بدورهم على متن السـفينة، لكم أن تتخيلوا أن هناك أطفال لَم يحسـنوا التقاطهم وكانت النتيجة السقوط في الماء أو أن يسـقط الطفـل كبالـون محمـل بالدمـاء منفجـرًا على رصيف الميناء.

أغمضـت إيلينـا عيونهـا محاولـة إبعـاد تلك الصـورة البشـعة عن مخيلتها صارخة:

ـ يا إلهي! كم كان هذا قاسيًا على ذويهم!.

بينما كان السيد فلاديمير منصتًا رغم علمه بكل تلك الأحداث.

وتابع أدلار مستطردًا:

ـ لـم يقـف الأمر عنـد هذا الحـد فبعد أربعـون دقيقة مـن إبحار السـفينة تمّ ضربها بثلاث طوربيدات بحرية سـوفيتّيّة؛ لتصيب الهدف بنجاح سـاحق و تغرق السـفينة في قاع البلطيق في دقائق كانت هي الأبشع على الإطلاق، لَم ينجُ من عدد الركاب المهول هذا سوى ألف ومئتان راكب فتصبح سـفينة «فيلهلم غوسـتلوف» هي أسـوأ كارثة بحرية على الإطلاق وليسـت «تيتانك» كما يعتقد العالم كله، وذلك فقط لأننا ألمان الجنسـية تمّ التعتيم الكامل على الأمر ليغرق تمامًا في غياهب الزمن كما السـفينة المنكوبة وغيرها من الأسرار التي ستظل حيّة في قلبي وقلب كل من فقد أحبته جراء الحرب.

ثُمّ أخرج أدلار الصورة القديمة التي لا تفارقه وسط ترقب من إيلينا يقابله سـكون من السـيد فلاديميـر ليضعها أمام أعيـن الأخير(هل تعـرف صاحبة تلك الصورة؟) اقتـرب فلاديمير من الصورة ببطء وهو يضع نظارة القراءة خاصته ليمسك بالصورة بحذر بينما كانت إيلينا تتنقـل بعيونها بين الصورة وبين السـيد فلاديمير قبل أن ينطق الأخير وهو ينظر إلى وجه أدلار:

"كمـا توقعـت بالضبـط؛ فمنـذ أن وقعت عيني علـى وجهك وقد شعرت أني أعرفك جيدًا، أنت هو يا ولدي، تشبهه في كل شيء، نبرة صوتـك وملامحـك حتى انفعالك ولكي أؤكد لنفسـي أني على حق فقـد تعاملت معك كما كنت أتعامـل معه عندما يصل لأوجّ غضبه، كنـت أتركه يلقي بحمـم انفعاله حتى يهدأ فـلا أقاطعه ولا أجادله أنـت من صُلب صديق عمري ثُم صمت لحظات ترقرق فيهن الدمع في مقلتـي فلاديمير ليفجر قنبلة لم تكن لتتوقعهـا إيلينا أبدًا(أنت الإبن الوحيـد ل مارك يوري) اتسـعت حدقتا إيلينا مـن هول المفاجأة قائلة: (إذن تلك صورة والدتك.. كاثرين يا إلهي!)

هز أدلار رأسه ببطء وهو يبتسم ابتسامة حزينة تحمل الكثير من الانكسار لتنهض بعدها إيلينا مسرعة نحو أدلار محتضنةً رأسه داخل صدرها في حنان ليزداد نحيب أدلار مع دقات قلبها وقد تساقطت بدورها دموعها الحارة مرددة:

(جئت لتبحث عن والدك يا حبيبي، لقد ظلمتك وقسوت عليك كثيرًا.. سامحني أرجوك سامحني)

حتى أن السيد فلاديمير لم يستطع أن يمسك دموعه لينادي على أدلار:

(اقترب يا ولدي.. اقترب فقد أشتقت إلى رائحة أبوك)

رفع أدلار رأسه عن صدر إيلينا ثُم هم بالنهوض بروية نحو سرير السيد فلاديمير ليقف أجزاء من الثانية قبل أن يرتمي في أحضانه ليلتقمه السيد فلاديمير بين ذراعيه مربّتًا على ظهره بحنان أب ثُم أبعده عنه قليلًا ليمسك بوجهه بين كفيه:

- (تشبه والدك لأقصى درجة يا ولدي).

ثُم احتضنه مرة أخرى بشدة لتخرجهما إيلينا من لحظة الشجن تلك قائلة وهي تمسح دموعها:

«لم يعد هناك داعٍ للحزن أنت هنا في بلدك يا أدلار وسنبحث عن عائلة والدك وستكون جميع الأمور على ما يرام، يكفيك ما واجهته كل تلك السنين الماضية)

(صحيح يا ولدي أخبرني ما الذي حدث مع والدتك؟».

قالها السيد فلاديمير وهو يكفكف دموعه بالمنديل الذي ناولته إياه إيلينا.

ابتسم أدلار ابتسامة باهتة:

- لقد غادرت أمي معسكر أوشفيتز مع باقي الفريق قبل هجوم

الجيش الأحمر ولم يكن هناك أحد يعلم بحملها سوي صديقتها مادلين ومرّت شهور الحمل ثُمّ وضعتني في وقت كان معظم الألمان غير عابئين بأي شيء سوى الخوف من هزيمة هتلر ومن سوء حظها أنها كانت ضمن ركاب سفينة..

صمت أدلار قليًلا وكأن الأمر ثقيًلا على قلبه أن يذكره قبل أن يكمل:

(سفينة «فيللهم جوستلوف»، لتلقى مصرعها غرقًا داخل مياه البلطيق المتجمدة)

(وكيف نجوت أنت يا أدلار؟) قالتها إيلينا.

حسب رواية مادلين والتي بالمناسبة لَم أعرف لي أمًا غيرها قد أعطتها أمي إياي أثناء غرق السفينة فلم تكن أمي قد عرفت هل مات أبي أم هرب ووصتها أن تبحث عن أبي أو عائلته في حال إذا انتهت الحرب في يوم من الأيام وتسلمني لهم، ولكن مادلين لَم تنفذ وصية صديقتها فبعدً نجاتنا من الغرق في ذورق صغير مررنا بفترة عدم استقرار طويلة ثُم عدنا بعدها إلى ألمانيا وكنت وقتها في سن المدرسة واستخرجت لي شهادة ميلاد باسمها ولَم تخبر أحدًا أنني لست ولدها واعتقدت أن السر غرق في غياهب البحر كما غرقت كاثرين ولكن القدر شاء أن يكشف ذلك السر قبل وفاتها بفترة قصيرة عندما أصيبت بورم خبيث في الرحم وكان حتمًا على الأطباء استئصاله وابلغوني وقتها أنها تحتاج الى نقل دم وكنت أنا أول من أراد بالتضحية بحياته لأجلها معتقدًا أنها أمي حتى كشفت التحليلات الطبية استحالة أن أكون ابنها علاوة على أنها لم تنجب من قبل لأنها عاقر، وهنا بكيت تحت أقدامها لكي تخبرني من أنا وبصوت واهن أخبرتني بالحقيقة الكاملة وأعطتني صورة أمي الحقيقية كاثرين وعرفتني اسم والدي وطلبت مني أن أسامحها فقد

خشيت أن تفقدني طول حياتها لذلك جرعتني الكره للسوفيتّ، حتى تبعد عن تفكيري فكرة البحث يومًا ما عن والدي في حال عرفت الحقيقة خشية أن أتركها، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة وهي تردد:

- (سامحني يا ولدي).

وبالمناسبة هي من ذكرت لي اسمك سيد فلاديميرفي حال أردت معرفة الحقيقة ولم أستطع الوصول إلى والدي، كما أخبرتها أمي الحقيقية .

تنهدت إيلينا بحرارة:

- «كم كانت قاسية السيدة مادلين كقسوة الحرب في باطنها الرحمة وفي ظاهرها العذاب»

ليجيبها السيد فلاديمير:

- (نعمَّ صدقتي يا ابنتي، والآن أدلار عليك الذهاب إلى عائلة والدك حتى تتعرف عليهم)

ـ نعم سيد فلاديمير هذا ما قد عزمت عليه ومن ثَمَّ سأقوم بإجراء التحاليل اللازمة لإثبات نسبي لعائلة (يوري) ولكن قبل كل ذلك أريد زيارة قبر والدي.

«نعم يا ولدي وأنا أيضًا أحتاج لزيارته وأعلم جيدًا أنه سيفرح بوجودنا معًا لذلك دكتورة إيلينا أطلب تصريحًا للخروج."

- «بكل سرور سيد فلاديمير» ثُمّ ابتسمت «فأنا أيضًا أَوَدّ زيارته».

نقل السيد فلاديمير بصره بين أدلار وإيلينا بينما كانا يتبادلان نظرات الحب؛ فهز رأسه مبتسمًا متمنيًا لهما حياة مديدة معًا تحمل كل السعادة التى حُرم منها مارك وكاثرين.

وبعد عدة أشهر...

«نعم أوافق» هكذا كان رد إيلينا عند سؤالها هل توافقين على

الـزواج مـن السـيد أدلار مـارك يـوري. إذن أعلنكما زوجًـا وزوجة، يمكنك تقبيل عروسك.

الحـرب في موسـكو، والدموع تنهمر من عيون السـيد فلاديمير وكانت إلى جواره على الكرسي المدولب السيدة صوفيّا.

وقد حضر مراسم الزفاف الدكتور أليكسندر، وودع العروسان الجميع معلنان بدأ حياة جديدة، لتنظر إيلينا إلى وجه أدلار متسائلة:

«هل ستكمل رسالتك عن تلك الحرب الدامية؟»

«لا عزيزتـي، بل سـيكون نصفهـا عن الحق والنصـف الآخر عن السلام».

❖ ❖ ❖